رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

(٤٠)

الكُنْتِي

(مجموعة قصصية)

الدكتور / عبد الرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسين، عبدالرزاق

الكنتي./ عبدالرزاق حسين.- الرياض، ١٤٣١هـ

١١٢ ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٧-٩٧٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة - السعودية

أ- العنوان

ديوي ٨١٣,١٩٥٣١ ١٧٥٥ /١٤٣١

رقم الإيداع: ١٧٥٥ /١٤٣١

ردمك: ٧-٩٧٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة ٧

الكنتي ٩

من أوراق كنتي ١٣

الأنفال و السيف و المهرة ١٩

الخاتم ٢٣

الحكواتي ٣١

الماسورة ٣٥

تأشيرة هجرة ٤٣

مسالم بن محارب ٤٩

صاحب الكلب ٥٥

لعبة الكالة ٦١

أحلام مدمن ٦٩

دراجة الموت ٧٥

وسوسات أبي ذر ٧٩

المذهب الزعنوفي ٨٧

الجاهز ٩٣

موت شجرة الكرز ١٠١

مقدمة

صوت الماضي يكسر حاجز صمت الحاضر، يعلوه، يبعث في أوصالي الدفء، يشرق أمل من طيّات البعد، سراب ذاك؟ أم مجد ينفض عن كتفيه غبارا؟

أحلام وردية؟ أم عرق ينبض في قلب الكُنْتية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

قمر علويّ الطلعة؟ أم هالة نور تحتاج إلى نسّاج ينسج فجراً قمراً؟

كنت أخوض عباب البحر مع الماضي، والحاضر حطم مجدافي.

أحمل كل بطاقات السفر عبر موانئ لا تحصى، الحاضر أوقف تياري، مزّق تذكرتي، أحرق تأشيرة سفري.

عبر الدنيا تاجي يألق فوق الرأس الشامخ، يُنزَع، قدماي تجول تخوم الأرض، قيد يوهيها.

ولساني عربيّ لا أحتاج لغيره، يُقطع، أُمنح ألسنةً أخرى.

جلدي يعرفه من في الأرض، لوني جذاب السمرة، يسلخ جلدي.

الغوص على المجد كالغوص على اللؤلؤ، في وقت تقطع فيه الأنفاس، و الأجراس تدق: اللؤلؤ يحتاج إلى غواص، وأنا عدة غوصـي قد سقطت في قاع البحر.

أ. د. عبد الرزاق حسين

الكُنْتي

لم يكن هيكلاً لمخلوقات انقرضت، بل هو حقيقة واقعة تمشي على رجلين.

أسئلة كثيرة كانت تبحث عن إجابة، لعله استطاع أن يفلت من الموت، أو ربما يكون قد تذوق الترياق الذي يطيل العمر، هذا ما كان يدور في أذهان حسني النية، أمّا ألسنة السوء فكانت تحاصره، وتدور عليها أسئلة كلها تصب في دائرة اتهامه بالجنون، أمّا ضحكاتهم وعيونهم الساخرة فكانت تصفعه كلما مرّ في أحد الأزقة، وهو يضع حول رأسه عصابة حمراء، ويتمنطق سيفاً يتدلّى من خصره.

هذه الأسئلة التي كانت تضطرب في رأسي أيضاً يميناً وشمالاً، وجدت لها جواباً عند من عرفوا أبا مصعب، فهو على حد قولهم ليس كبيراً جداً، بل لم يتجاوز الخمسين، ولم يؤثر عنه تصرف واحد يدينه بالجنون، ولكن أسلوب حياته، الذي فرضه على نفسه، أدّى إلى نفور الناس منه.

ومع ذلك ألِفْتُهُ بعد أن اقتربت منه، وألفني هو كذلك، وكثيراً ما كان يشكو إليّ نفور الناس، الذين لم يستطيعوا تفهُّمَ نظريته التي يريد إثبات صحتها، إلى جانب أنّه لم يكن يزاحمهم في شيءٍ، لم يكن يحلم كما كانوا يحلمون: بالثروة والجاه والسلطان، ولم يقض مضجعه: أين يقضي عطلة نهاية الأسبوع؟! فلماذا لا يتركونه وشأنه؟ وكثيراً ما كان يحتد في أثناء حديثه عن تلك الخصومة، فيعدل من عصابته، ويعلي صوته، قائلاً: لماذا لا يتركونني مع أحلامي؟ لقد تركت لهم أرض الواقع، وانزويت مع الماضي.

كنت أشفق عليه من تلك الفكرة التي تقمصته، فقد حرم نفسه من أطايب الحياة، التي كانت بين يديه، وفرض عليها تقشفاً لم تعتده، ومع ذلك فقد كانت أحلامه رحيبة رحابة الماضي، كانت كتب التاريخ عشقه وهواه، وخريطة قديمة معلقة على الجدار.

الماضي بالنسبة له هو الحياة، تغمره النشوى لذكرى تطوف بخياله، أمّا الحاضر فقد ضاع، ومن العبث البحث عنه.

اشترى بيتاً قديماً تزينه الأقواس، وتنتصب بين أركانه ونوافذه

الأعمدة، حتى لباسه كان يتخيره من الطراز القديم، أمّا أسماء أبنائه فهم مصعب، وعقبة، وعتيق، مع أنّه لم ينجب أبداً.

تخلت عنه زوجته بعد أن ضاقت بنمط تلك الحياة، ولم تستطع أن تتوافق مع هذه الردة التاريخية، وانضمت إلى ركب مشيعي إصابته بعقله.

واسيته بعد أن تمت إجراءات الطلاق، ولكنه تبسم ضاحكاً – وقلّما يتبسم – وقال: لا بأس على الحاضر، فقد كانت هذه الزوجة جزءاً منه، تربطني به، وتقيّد أقدامي التي كانت تهفو إلى عبور الزمن، لقد كانت المحيط الذي أعاق عقبة وحصانه عن الانطلاق، وأراني أشعر ببيوسة المحيط، يشدّ حزامه، ويشمّر عن ساقيه.

لولا معرفتي به لخضت مع الخائضين، ولكنه يغلو في أحلامه، ويشتط: **هل من المعقول أن تتحقق هذه الآمال التي مرّ عليها الزمن؟** فهذه الخريطة القديمة تبين زحف الغافقي على باريس، وانطلاق الأغالبة لحصار روما.

حاولت كبح جماح تعلقه بالماضي، وبناءً على استشارة أحد أصدقائي الأخصّائيين في علم النفس، كنت بين الفينة والأخرى أستعمل الصدمة، التي ثبت جدواها في علاج الأمراض النفسية، فكلما دخلت عليه أمسكت بمطرقة الحاضر، وأدنيتها من أمّ رأسه، وكالصاعقة جعلتها تهوي محدثةً دوياً هائلاً: الانفصال، إغلاق الحدود، القتل، السجن، الإرهاب، التمزق. وكنت أتوقع ردّ الفعل، لأنه

كما يقال: لكل فعل ردّ فعل، ولكن الشفاه الجامدة كانت تفترُّ عن برود وسخرية، ثمّ ينهض من مقعده، ويتجه إلى الخريطة، فيحمل مؤشره، ويشير به إلى جزر البحر المتوسط (صقلية، مالطة، كريت، قبرص) قائلاً: هذه البحيرة عربية، هكذا يقول الماضي. وأنا أثق بما يقول.

انشغلت عنه مدّة، ولكن فاجعة السقوط في حرب حزيران ١٩٦٧م ذكرتني به، فهرولت إليه مسرعاً، وأنا عازم على إعادته إلى أرض الواقع، كي نواجه الحاضر: كالسيل. الدفاع والزبد يملأ أشداقي، صببت عليه نار الحاضر، فاندفع إلى كتاب عن صلاح الدين، وغمر وجهه بين دفتيه.

أعلنت سخطي عليه، بل أصبحت من المروجين لشائعة إصابته بعقله.

كان ذلك بداية القطيعة بيني وبينه، ومع أنّني كنت أشعر بالأسى لما فعلت، فأنا الصلة الوحيدة التي تربطه بهذا الحاضر، فإنّ المسافات باعدت بيننا، فشغلت عنه.

عدت قبل أشهر على إثر الاجتياح الصهيوني للبنان، وفي نفسي حاجات، توجهت أوّل ما توجهت إلى بيت أبي مصعب، فوجدت جمهرة من الناس حول البيت، وكانت الصدمة! لقد عاد أبو مصعب إلى الماضي، أصبح حلماً، طار بجناحيه، وعبر دائرة الزمن بعد أن حلّق طويلاً فوق الحاضر.

الناس يجلسون حول أعمدة البيت، وتحت الأقواس، وعيونهم معلقة على الخريطة، وبيد أحدهم مؤشر أثبته على مدينة قرطبة.

من أوراق كُنْتِي

صاحبنا الزناتي حدّدَ أعداءه، الحاضر واللصوص، كنا نسخر من هذا التحديد، ونستفزه بالأسئلة.

- ما الذي فعله بك الحاضر؟

فيجيب، وكنا نظنه يهزل: ابتلاني بكم، وابتلاكم بي.

- ثم ماذا؟

- أجبرَ عمودي الفقري على الانحناء.

نقهقه، ويزداد استفزازنا.

– وما الذي سرقه اللصوص من بيتك؟

وأنت إذا دخل اللصُّ بيتك أخذته الشفقة عليك!

فيردُّ وكأنه جادٌ فيما يقول:

– سرقوا شواهد القبور، وبوابة العبور.

– ثمّ ماذا؟

–سيف جدِّي البتار.

في أحد الأيام جاءَنا مذعوراً:

اللصوص سطوا على بيتي، اغتنموا فرصة سفري عبر التاريخ إلى جبال المجد، فسلبوا كلّ ما أملك.

– وهل تملك شيئاً؟

– نعم، دفتر مذكراتي، وشاهدي الوحيد على قضيتي.

هبّ أصحاب النخوة – وكنت من بينهم – وبدأنا البحث، نزلت إلى الحديقة، وعند إحدى درجات السلم الأرضية، وجدت دفتراً صغيراً داسته الأقدام، وتلطّخ بالوحل، التقطته، وما إن فتحت فمي لأزفّ البشرى حتى أطبقه حبُّ الاستطلاع.

فتحت الصفحة الأولى، وقرأت:

(في مثل هذا اليوم، نامت باريس على أنغام صهيل خيل الغافقي، وفي مثل هذا اليوم تحطّمت الطائرات عند الفجر!).

قلّبت، لم أستطع أن أتبّين خطوط الكتابة، فآثار الطين والأقدام ألصقت بعض الأوراق المتتابعة، ها هي ذي ورقة من الممكن قراءتها: (لا تصرخ يا أبا تمام، فالتين والعنب، وكلُّ أنواع الثمار والفواكه قد نضجت، وسقطت على الأرض، ولم تجد الأيدي القادرة على لمِّ الزبيب والثمار المجففة!).

أزحت ما علق على الصفحة التي تليها، فإذا به يوم السبت، ويذكر فيه:

(أنّ صحف اليوم قد أوردت خبراً عن فيلم، يعرض لما نال أطفال اليهود في أوروبا في الحرب العالمية الثانية، في الوقت نفسه كان أطفالنا يعبرون بحر البقر!).

لم أستطع أن أفهم الكثير من العبارات والإشارات، التي وردت في صفحات متتالية، فبعضها أسماء لرجال مثل: (خالد، عقبة، طارق، صلاح الدين، ابن تاشفين، الفاتح، عمر المختار، العظمة، القسام..!).

وبعضها أسماء لمعارك، مثل: (بدر، ذات الصواري، فتح الفتوح، القادسية..!) إلى غير ذلك من الرموز، التي تتحول أحياناً إلى حروف أو أرقام.

بدأ الطين يخف أثره، ها هو ذا يوم الأحد:

(بيروت تُمهر بخاتم صهيون)، وفي الورقة المقابلة (نبوءة العهد الجديد بالتقاء صهيون ومار مارون)

في الاثنين: (احتجاج شديد اللهجة من قبل مندوبنا في الأمم المتحدة. ما ضاع حق وراءه احتجاج شديد اللهجة!).

وفي صفحة الثلاثاء: (اتفق العرب على أن لا يتفقوا، حرب البسوس عادت، يا لثارات تغلب، يا لثارات بكر!).

عدت أقلب الصفحات، حتى وقعت على صفحة واضحة:

عاد كسرى، كسرى يعيش مرّتين، وعظ البحتريُّ إيوان كسرى، وأصبحناموعظة.

وفي الصفحة التي تليها:

انتصار عظيم يحققه العرب، وصول ثلاث فرق عربية إلى مدريد،

هل عادت الفتوح...؟!

اليوم نفتتح كأس العالم.

وتحتها مباشرة كُتب:

فتاة في عمر الورود، تقود سيارة مفخخة، مزّقتها بعد أن فجّرت قافلة للعدو.

أين أنت يا ابن أبي الربيعة:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول!

وفي الصفحة قبل الأخيرة كتب:

(... بياض أو سواد، ليل أو نهار، حلاوة أو مرارة، حزن أو فرح، حياة أو موت، فراغ أو انشغال، جوع أو تخمة، صحة أو سقم، هزيمة أو انتصار... استوت الأشياء!).

سمعت صوت أقدامه وهو ينزل درجات السلم، أسرعت فتحت آخر صفحة، وجدتها خالية إلاّ من أثر أقدام اللصوص، أطبقت الدفتر، وأنا أحس أنفاسه اللاهثة.

لم ينتظرني لأناوله شاهد القضية، بل اختطفه من بين يدي، وحضنه بين ذراعيه كالأب الحاني.

انتهت مهمتكم، هذا ما صرّح به وهو يحدِّق بنا، ومن عيونه لمست ما غاب عني فهمه من أوراقه.

الأنفال والسيف والمهرة

صـوت أبي نصر يشق بهيم الظلمة، وهو يرتل آيات الأنفال، تنـزاح العتمة، ويبرق فجر، يمضي في ترتيله، ينسكب شعاع ذهبيٌّ عبر النافذة الخشبية، يتلظى حدُّ السـيف الخارج من غمده، المثبت في مسمار في الجهة القبلية والمتعامد فوق الرأس الساجد، يترقرق في صفحته سفر النصر، يتهادى تاريخ يعبق بالمجد، وتلوح بيارق.

في ظهر السـيف جدار، والمهرة تصهل في الخارج، فيضج صهيل الخيل: أحلاماً، آمالاً وسنابل.

يطوي أبو نصـر المصـحف، يتمطى، يقف، يتناول سـيفه، يضـعه على عاتقه بلا جفن، يتوجه إلى مربط المهرة، يضـربها على مؤخرتها

بضع ضربات خفيفة بيده، يمسح عرفها، ثم يأخذ رأسها في صدره، تحمحم، يفك الرسن، ويضع رجله في الركاب، ثم يعتدل فوق السرج الملتحم بظهر المهرة يعلوها أبداً، لا ينفكُّ استعداداً للغارة واترة أو موتورة، يهمزها فتروح تسابق مُرْبِعَةً حدّ الخوف، تعبر أفق الماضي، ويطول الجري، وعلى مقربة من نهر، تحفر بحوافرها المنزلقة في الطين أخدوداً يفصل بين الأنفال وجري المهرة، تحمحم، فيجيب النهر صدى، يهمزها، لا تتقدم، ينطلق بصوت كالرعد القاصف: ياعقبة... فيجيب صداه زبد النهر، وزخات رصاص تستعر، وتنحدر من فتحات حصون، تشمخ فوق جبال ورؤوس ومناكب.

وصهيل (الفانتوم) يكسر حدّ الصوت وحدّ الجرأة، وتمر الجولة، فالحرب سجال.

يهيئ أبو نصر نفسه للنزال، فيمتشق حسامه كمخراق لاعب، يُصَلِتُهُ بين أذني مهرته، يضرب خاصرتيها بساقيه، ينطلق مائلاً بجسمه، ليمزِّق صدور الأعداء، وتتراءى له الرؤوس تتساقط متتابعة من خلال عرف مهرته، الذي يُطَوِّحُهُ الهواء بعنف.

وتسفر الجولة عن مهرته وقد تسربلت بالطين، الذي قيدها قيد الأوابد، فيحول بينها وبين المعمعة.

والجولة تتبعها جولة، والنصر أكيد، فالحق معي والصبر، يتلاعب بالسيف يميناً وشمالاً وأماماً وإلى الخلف، تنزلق رصاصة، تُحْدِثُ صلصلةً، وتفجِّر شرياناً، تعلو الابتسامة وجه أبي نصر، وتتمتم شفتاه: (إن يمسسكم قرح...).

ينقل المعركة إلى الجهة الأخرى، فالركن الأيسر ما زال قوياً، ولا بدّ من جولة أخيرة، فممرُّ النصر وطريق الجنة باتجاه اللافتة المنصوبة فوق الجسر، المؤدّي إلى الأنفال، وحدِّ السيف، وصهيل المهرة.

كوكبة من عسكر تحصره، شاهرة في وجهه فوهات، لم تعرف طعم البارود ولذع النار.

يعرف أكثرهم، تعلوه الدهشة، طيّات ملامحهم وملابسهم تحمل عار الجبن وسفر الذل، تشهد زوراً وأمام التاريخ، وفوق رؤوس الأشهاد بأنهم ما زالوا للوطن سياجاً.

يمسك أحدهم بلجام المهرة، والآخر ينزع مقبض سيفه، يغرس طرفه تحت الصخر، وبكعب حذائه يضربه ضربات، يتماوج، يبرق حدُّه، وأمام عيون ترمقه يُلْقَى في النهر، يرسل صوت ارتطام يعبر أذني أبي نصر، الذي يظنه صليلاً، يبتسم وهم يشدون وثاقه بعد إنزاله عن ظهر المهرة، ويضغطون عظامه لتقترب يده المصابة من السليمة، تُعْصَبُ عيناه، يضرب خلف الجند على غير هدى، أنفاس المهرة تصحبه، تبعد عنه، تتخلّى عنه، فقرار الآمر يحرمه عبق العرق الناضح من صدر المهرة، التي تصبح ملكاً من أملاك الدولة، ويساق هو بتهمة حمل السيف، وعبور الخوف، وإشعال لظى حرب في الصيف.

السيف البتّار مُلْقىً في قاع النهر، والمهرة تربط في إصطبل سباق، وتشيخ الرؤية والعمر في قبو يُدعى زنزانة، يسكنه ذاك المدعو أبو نصر، وبهذا تم الفصل بين الأنفال، وحدِّ السيف، وصهيل المهرة.

الخاتم

تقف باعتداد على الساحل، وكأنها تقبض على ناصية البحر، تخشى هروبه، وهو يموج تحت قدميها: كمحب خاضع، أو كعبد ذليل.

في شموخها صامتة، وكأنها اكتفت أن تكون عبرة، صامدة في وجه الزمان، والريح، والموج العاتي.

شجيرات المصّيص النابتة في مفاصل الجدران تتدلى بأزهارها الصفراء: كالثريات بمصابيحها المضاءة.

محاولة شاقة لأسراب النحل في الصعود للحصول على الرحيق، والعصافير اتخذت منها مكاناً آمناً من مقاليع الفتيان، وحضناً لأعشاشها.

أما الطيور البحرية فقد جعلت منها مكاناً للمراقبة، بعيونها الحادة تستطلع قاع البحر، الأفواج المنقضة، وتلك الصاعدة بالغنيمة تشبه ميدان سباق، والأسماك هي الغنيمة والجائزة.

اللون الأخضر القاتم يسيطر على المكان، فالقواعد التي اعتادت على لطم الموج وتسلق الطحالب، والجدران الممتلئة بالعديد من الشجيرات الصغيرة، التي تجد لها اسماً، وأحياناً تصيبك الحيرة في التعرف عليها، تقنّعت بالخضرة.

الأحجار الضخمة، والأعمدة الغليظة، والنوافذ الضيقة، والحركات المتقوسة، كل ذلك يوحي بالرهبة.

القلعة بمثابة مركز الزمان والمكان، فالتوقيت بمكان الشمس والظل منها، والمواعيد تتحدد على ضوء الزمان، والجهات شرقاً أو غرباً، جنوباً أو شمالاً.

ومع كونها معلماً بارزاً في حياة تلك البلدة الهادئة على سفح الجبل المطل على البحر، إلّا أنها لا تثير الرغبة في التعرف عليها، والاطلاع على معالمها الداخلية، وكأن الألفة لا تبعث على الدهشة والانبهار ومحاولة الاستكشاف، أو أن ذلك راجع إلى تلك الإشاعات القوية، التي استقرت كعرف، والتي تزعم بأن الجن والأشباح والأرواح اتخذت منها مسكناً، فجثث القتلى من المسلمين والصليبيين المركومة في داخل القلعة، تبعث في الليل كما يزعمون، وتعيد الحروب الصليبية.

وقد ادعى كثير منهم سماع صليل السيوف، وأصوات استغاثة، وأنّات الجرحى، وبالغ البعض في أنها تضاء ليلاً.

رجل جاء من الشمال، يدّعي أن اسمه ركن الدين الأيوبي، ملامحه صامدة كالقلعة، ولكنها تثير الشفقة، صامتة، ولكنها لا تثير الفضول.

دعواه بأنه من أحفاد صلاح الدين طمأنت الجميع بأن من في مثل عقله لا يخشى منه، أما دعواه الأخرى بأنه يحمل خاتم صلاح الدين، فقد أثارت السخرية والتندر من حوله. ومع ذلك فقد تمّ الاتفاق بين الطرفين:

طرف أول: أهل البلدة.

طرف ثان: ركن الدين الأيوبي حفيد صلاح الدين وحامل خاتمه.

اتفق الطرفان على أن يؤجر الطرف الأول للطرف الثاني القلعة مقابل خمسة أرطال من السمك أسبوعياً، يدفعها إلى بائع السمك الذي يقوم ببيعها إلى أهل البلدة، ثم يدفع ثمنها إلى المجلس البلدي، على شرط أن لا يساكنه أحد أو يزوره، ولا يحق لطرف بمفرده فسخ العقد، وفي حالة إصرار أحد الطرفين على ذلك فإنه يقوم بتعويض الطرف الآخر، بما يوازي المبلغ المدفوع من تاريخ الاستئجار إلى تاريخ فسخ العقد.

أكثر من ثلاثين عاماً، والقلعة هي ركن الدين، وركن الدين هو القلعة، لا يثيران اهتمام أحد.

فركـن الدين علاقاته محـدودة، لم يغير نظامه ولـو لمرة واحدة، فهـو يظهر في البلدة مرة واحدة كلّ أسـبوع، حيث يدفع الأجرة، ويبيع فائض السمك، ويصلي الجمعة، ويعود إلى قلعته ليباشر حياة البحر.

كاد النـاس ينسـون ركن الدين، ولـولا تلك الشـائعات، التي بدأت تضج بها القرية، وتلوكها الألسنة لظلّ بلا حساب.

الهمسات تدور حول ما تخفيه القلعة من كنوز، هذا ما أسرّ به أحد مدعي السياحة الأجانب، لبعض المتسكعين حولها.

الخبر انتشـر كالنار في الهشـيم، اجتمع المجلس البلدي للبت في أمر ركن الدين والذهب، الذي وضع يده عليه، ويقوم بتهريبه يومياً عبر رحلاته البحرية في قاربه، تحت غطاء صيد الأسماك.

(الطرد، السـجن ، القتل) ثلاثة آراء متعارضـة، كانت نتيجة هذه الجلسـة العاصـفة، وكانت مثـار أحاديث أهل البلدة، فانقسـموا ثلاثة أقسام، وبقي رأيان:

رأي رئيسـ المجلس الذي يرى أن يعاقـب بالعقوبات الثلاث، ورأي بائع السـمك، الذي يرى أن تبقى الأمور على ما هي عليه، اسـتناداً إلى شروط عقد الإيجار، الذي لا تستطيع البلدة أن تخلّ به، وإلّا دفعت أكثر من عشرة آلاف رطل سمك.

إلّا أنّ رأيه لم يلتفت إليه، لأنه كما يدّعون هو المنتفع الوحيد، ولعلّه شريكه، لأنه يتستر عليه.

اجتمع المجلس البلدي والفئات الثلاث، وناقشوا قضية عشرة آلاف رطل السمك، وخرجوا بالإجماع على أن القتل ينقذهم من الدفع، ويوفّر لهم الذهب المزعوم.

الشمس تكاد تغرق في البحر، العيون ترقب القلعة، بائع السمك يتسلّل من بين الصخور، ليصل إلى المرسى، الذي اتخذه ركن الدين لقاربه، كي يحذره من تآمر أهل البلدة...

الليل يخيّم على الجميع، والأحلام تقضُّ مضاجعهم :

شابٌّ عقد قرانه منذ مدّة ولم يتزوج، لضيق ذات اليد، يفكر في قتله ليلاً والاستئثار بالذهب.

آخر باع أملاكه على ملذّاته، وتراكمت عليه الديون، يفكّر في الطريقة التي يستطيع بها الحصول على الذهب.

حتى رئيس المجلس ذهب ليضع الخطط مع رجاله، ليفوز بالكنز وحده،وليقف في وجوه أثرياء البلدة، ويطاولهم في شراء أراضيها.

النساء بدأن في حثّ أزواجهنّ للتفكير في محاولة الحصول على الذهب الذي أخذ يبرق في عيونهنّ، فيشعُّ على النحور والصدور والمعاصم.

لم يبق أحد في تلك البلدة لم ينشط خياله، فعقود الزواج ستبرم،

والشـوارع سـتعبد، والكهرباء والمـاء والأدوات الكهربائية والمشـاريع التجارية والصناعية، كلها أخذت حظها من التفكير.

نامت البلدة على وسادة من ذهب، و استيقظت بأسرها على أصوات انفجارات، هزّت أحلامهم، وأقلقت مضاجعهم.

يا إلهـي...! ماذا؟.. القلعـة.. القلعة تحترق..! وبانقشـاع الدخان والغبار تقطعت أوصال القلعة، التي ظلّت صامدة على الزمن.

ولأول مرة تعبر البلدة حاجز الخوف، وتدخل القلعة.

صرخ أحدهم : هاهو ذا ركن الدين تحت الأنقاض.

محـاولات نجحت في إخراجه، وضـع أحدهم أذنه على صـدره: لا زالت به الروح.

فتح ركن الدين عينيه، نظر إلى من حوله، رأى بائع السمك، فأشار لـه بيد لا زال الدم يتدفق منها، اقتـرب البائع، همس في أذنه، ثم خلع خاتماً من إصـبع دامية، وقال في ثقة: هذا خاتم صـلاح الدين، ورثته عن أجدادي، فحافظ عليه، ثمّ أغمض عينيه...

لحظات حيرة وارتباك عمّت الجميع .

تقـدّم رئيس المجلس، وقال: لعـلّ هذا الخاتم من الذهب المدفون في هذه القلعة .

وقال آخر: حقاً ما تقول، لعله من الكنـز المدفون.

وقال ثالث: لابد أن نأخذه للمدينة، ونعرضه على صائغ، فلا يجوز أن تذهب بالغنيمة لوحدك.

اختلاف أدّى إلى تماسك بالأيدي وعراك، كانت نتيجته سقوط الخاتم بين الأنقاض.

البحث عن الخاتم والكنز المدفون سيد الموقف، وركن الدين ملقى بين الأنقاض.

الحكواتي

تحليلات الصحف وتعليقاتها تؤكد بأنّ الحرب وشيكة الوقوع، سحب التشاؤم تعلو سماء بيت أبي رحّال، يضيق به البيت وبأسئلة زوجته عن مدى جدية هذه الأخبار، يخرج يبتلعه السوق، يسلمه شارع لآخر، ليس هناك من دليل على جدية هذه الأخبار.

الاستعدادات للمعركة لا تبدو آثارها على العاصمة أو وجوه الناس، كلُّ شيء عادي، ما هو غير عادي عند زوجتي، لعلها معذورة، فابناها الاثنان طياران في سلاح الجو.

أحسّ بتعب شديد، وهو ينتقل من مكان لآخر، وعلى بعد خطوات رأى مقهى العروبة، لا أحبُّ جلسات المقاهي، ولكنني أشعر بتعب

وإرهـاق، سـأتناول كوبـاً من الليمـون حتى ألتقط أنفاسـي، ثـمّ أعود أدراجي.

على أقرب كرسـي جلس، يا له من مقهى رائع! يستطيع الإنسان أن يقضي فيه وقتاً هادئاً.

لـم أر فـي حياتي مقهـى يضـمُّ كلّ هـؤلاء الزبائن، وبـه مثل هذا الهدوء!

زال عجبه عندما تجوّل بنظره داخل المقهى، إذ وجد رجلاً يجلس على مصـطبة عالية، وخلفه لوحة قديمة يبدو أنّها رسم لمعركة قديمة أيضاً، الخيل والسيوف والحراب والفرسان.

عيون الجميع معلقة بالجالس على المصطبة، وآذانهم مصغية:

صـهل الأبجر، وانطلق الفارس الأسـود، يحصـد الرؤوس بسيفه، ولكـنّ عدوه اللدود الزياد بن الربيع ومنافسـه علـى قلب عبلة، حفر له حفرة، غطاها بأغصان الأشجار، وبرز الجبان لعنترة، فصرخ عنترة: إليّ أيها الرعديد! ولحق به، لحظات وإذا بالأرض تبتلع الأبجر، ويهجم الفرسان، ويخرج عنترة مقيداً.

همهمات تشـقُّ حجاب الصـمت، ارتفعت لتصـبح ضـجيجاً، مال أحد الجالسـين، وهمس في أذن رفيقه: أتظن لو أنّ عنترة كان موجوداً سيحدث لنا ماحدث؟

يردُّ رفيقه: والله يا شيخ بضربة من سيفه يتغير الحال.

يستغل الحكواتي فرصة الوقت الضائع، وتمتدُّ يده إلى إبريق الفخّار، فيتدفق الماء البارد إلى فمه وصدره وملابسه، وكأنّه يستروح من حرِّ الصيف.

تحوّل الضجيج إلى هتاف عالٍ، وقبل أن تشتعل ثورة عارمة، وقف أحد المتحمسين، وصاح بأعلى صوته:

عليك أن تخرج عنترة من السجن، ولوّحت القبضات المؤيدة مدعّمة بأصوات الاحتجاج على سجن عنترة.

حوقل أبو رحّال، ونظر صوب السجن المركزي: آه.. كم من بريء يضمه هذا السجن، وما سمعنا صرخة احتجاج واحدة.

أطلّ صاحب المقهى، وأعلن شروطه لإخراج عنترة من السجن.

وبصوت واحد صاح الزبائن: هات جدِّد.

وتزاحمت أكواب الشاي والقهوة والكاكاو، وصرخ أحدهم: واحد زنجبيل على حسابي لأبي رضوان الحكواتي.

يتنهّد أبو رحّال، ويهزُّ رأسه، وهو يقول: حتى صاحب المقهى يستغل التراث، ويتعامل مع التاريخ.

يستعيد المقهى هدوءه على صوت أوّل رشفة من الزنجبيل الحار: نظر عنترة إلى القيد، تبسّم، ثمّ اضطجع على جنبه، ولكنّ صوتاً يعرفه حقّ المعرفة دوّى في أذنيه، إنّه صوت عبلة: وا عنتراه.. وا عنتراه...

ويغلي الدم في عروق عنترة، ويزمجر صوته القوي، فيسقط باب السجن الحديدي، يصرخ أحد الجالسين: الله أكبر، الله أكبر، فيرددها الجميع.

شدّ بكلِّ قوته، فارتخت حلقات القيد، انفتحت، تكسّرت، هجم عنترة، وخلّص عبلة من الأسر والعار.

ضجّ الحضور بالهتاف والتصفيق.

يبتسم أبو رحّال، ويقول: هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك! ولكن دعك من سؤال الخيل، فصليل سيف محبوبك لا زال يقرع في بوادينا. شرب كوب الليمون، ومع آخر رشفة تأكّد أنّ الحرب ليست وشيكة الوقوع، كما تصورها أجهزة الإعلام، فلتطمئن أمُّ رحّال على ولديها.

وصل إلى بيته، توجه إلى سريره، غطّ في نومه، وقبل الفجر استيقظ كلُّ الناس -وأبو رحّال منهم- على صوت الانفجارات، هبّ مذعوراً، وهو يصيح: عنترة، عنترة، وا عنتراه.

حاولت زوجته أن توضح له الأمر، لكنه دفعها بقوة، وخرج يعدو، وصل إلى المقهى: أين المقهى؟!

أين عنترة؟!

أين الحكواتي؟!

أين زبائن عنترة؟!

الماسورة

في منتصف ليل العاشر من الشهر الثاني خرجت من خندقي، لأقوم بغفارتي، كان الجو شديد البرودة، وزخات المطر تضرب بعنف وجه الأرض، وأنا لازلت في ملابسي الصيفية، مع أن الشتاء قد شارف على الانتهاء، إذ لم يتم صرف الملابس الشتوية لأننا في حالة حرب، والدولة بحاجة لكل قرش، وعلينا أن نصبر.

تعثرت في عودتي لشدة الظلام وزحاليق الطين، فكشط ساقي، وعندما وصلت إلى الوحدة شاهدني الآمر على ضوء المصباح والدم ينزف، فقال: هل أصابك سوء؟

أشرت إليها! ضحك وقال: تستحق!.

لم أجد شاشاً أو حتى دواء أحمر ،لأوقف النزيف، فأشار عليَّ أحد الزملاء بغمر الجرح في الطين، وفعلا حدث ذلك وتوقف النزيف.

لم أنم تلك الليلة، إذ أصبت بأنفلونزا حادة، بالإضافة إلى التهاب جرح الساق، وهذا ما عاقني عن القيام بواجبي نحوها، كما عودتها منذ عشر سنين.

عندما تسلمتها أخبروني: أنها تعادل الروح، وثبت لي أنها أهم من الروح! قد تنقطع المؤن، ويعز الدواء، وتمر الشهور دون وصول الراتب، إلا أن أمورها تسير بانتظام، واحتياجاتها من القطن والشحمة والزيت والجراب لا تنقطع.

كان كل من في الوحدة يستيقظ من نومه مبكرا، ويهب إليها بعيونه الحمراء المنتفخة، فينحني عليها مسحاً وتلميعاً ،يضعها بين رجليه حتى لا تمس الأرض، يفتحها، يدخل الخيط المثبت بفلينة،يسحبه من الأمام والخلف عدة مرات، وبعد أن ينتهي، يقلبها بين كفيه وعينيه،ثم يستشير زملاءه – وكأنه لا يثق ببصره – الذين يأخذون الأمر مأخذ الجد، فيبدون آراءهم.

وفي الصباح أطل علينا المفتش، كان كل واحد من أفراد الوحدة قد استعد للأمر، أخذ يقلب ماسورةً ماسورة، حتى وصل إليّ، التقطها، فلمعت عيناه، وبسخرية لاذعة: وأخيراً وقعت! قالها، وكأنه اكتشف عميلاً سرياً، ثم أردف:

- ما هذا الإهمال يا شاويش؟

- ليس إهمالا يا سيدي المفتش.

- ماذا تسمي بقع الطين التي تعلو ماسورتك؟

أطرقت برأسي، بم أجيبه؟ هل أخبره بأن درجة حرارتي العالية تطبق على فكري و عيني و مفاصلي، و تحد من قدرتي على التفكير باسم آخر لما صنعت.

صمت، حاول أحد الزملاء أن يتدخل فأسكته بنظرةٍ منه، ثم علق على عدم إجابتي سائلاً: هل تعلم نص القانون رقم ١٧٢ /١٠٤٥ العام ١٩٦٠؟

لم أدرس القانون، ولا أهتم بنصوصه،ومع ذلك أحسست برغبة شديدة في معرفة نص هذا القانون، وبإشارة من حاجبي رددت: لا.

نص القانون أيها الشاويش المهمل يقول:

كل من أهمل في واجبه العسكري بترك سلاحه أو نسيانه أو إهماله يعاقب بالسجن لمدة ثلاثة شهور، مع إنزال الرتبة، وخصم نصف الراتب!

هالني النص، فلم أسمع من قبل بثلاث عقوبات مجتمعة لمخالفة واحدة .

تم تشكيل المحكمة العسكرية، وصدر الحكم بحبسي شهراً، مع إنزال الرتبة، والخصم.

توجهت إلى السجن، وعند الباب تذكرت الماسورة، من سيعتني بها طيلة غيابي عنها، ماذا سيحدث لها في هذا الشهر، انتفضت، وطلبت من الآمر أن تصحبني إلى سجني، وافقوا لوجاهة الأدلة،إذ لا يمكن أن أعود إلى السجن بذنب لا يد لي فيه.

ناولنيها أحد الجنود، ضممتها برفق ودلفت.

امتد الظلام إلى تلك النافذة الصغيرة التي توجه إليَّ سياط البرد القارس، لم أستطع النوم. نظرت إلى الماسورة فوجدتها تتمتع بالدفء في جرابها الجلدي.

وامتدت يدي لنزع الغطاء ووضعه على أطرافي، التي بدأ الخدر يسري إليها، وبعد أن فككت جزءاً من الرباط، أحسست بحركة عند الباب، و على الفور أعدت الرباط إلى حالته الأولى، خوفاً من أن أتهم بالإهمال، فيتكرر شهر السجن والخصم! أما الرتبة فليس لها إلا فرصة أخرى، ولا أدري إن كانوا سيبحثون عن عقوبة ثالثة ليتم تطبيق المادة على وجهها الصحيح .

أسناني تصطك، أطرافي ترتعش، وأنت تنعمين بالدفء والعناية!؟ حضنتها كما تحضن الأم وليدها، لتشعره بالحنان والدفء، كم أنت مكرمة أيتها الماسورة ومعززة. والأصل أن تمتهني لنعزا.

ماذا صنعت لترتفعي إلى هذه الدرجة!؟

حرمت أناساً من أقواتهم، نجوع ونعرى من أجلك.

أذكر أن أبا هاشم باع حماره.

ومحمود الصياد رهن شبكته.

وبهية تبيع بيض دجاجها لتوفر الضريبة المسمّاة باسمك! وأنت هنا تنعمين بالدفء، ولا تعلمين من أمرهم شيئاً.

انتهت مدّة إقامتي في السجن، خرجت، فاستدعاني الآمر، وبعد أن تلطف بالقيام من مكانه، نزع رتبتي، وثبت على ساعدي رتبتي السابقة، التي أمضيت خمس سنين وأنا أجاهد للصعود فوقها،فنزلت في طرفة عين.

ما أجهلني...!! وهل يتساوى الصعود والهبوط؟! وقبل أن يجلس زوّدني بنصائحه:اعلم أيُّها العريف -أصبحت عريفاً- أنّ سلاحك أهمُّ من نفسك، فحافظ عليه.

نظرت إلى التقويم المثبت وراء ظهره، فوجدت أنّنا في العاشر من الشهر الثالث، تذكرت أنّني لم أرسل شيئاً من راتب الشهر الماضي لزوجتي وأولادي، فاستأذنته في السؤال، ولمّا أذِنَ، قلت:

راتب الشهر يا سيدي، أريد أن أرسل مبلغاً للأولاد، فالحالة لا يعلمها إلاّ الله!.

ابتسم ابتسامةً باهتةً، ثم قال: أظنك نسيتَ أنّ جزءاً من عقوبتك هو الخصم؟

– لا، لم أنسَ سيدي الآمر، أنا لا أتحدّثُ عن هذا الشهر، إنّما أسأل عن الشهر الماضي الذي لم يُصرف قبل دخولي السجن.

طمأنني على أنّه لم يصرف بعد، فالدولة في حالة حرب، وعلينا أن نتحمّل، فالمسألة مسألة وطن لا مسألة راتب!.

تحسّست ماسورتي، وتهيّأت، ثم عدت إلى وِحدتي.

رسالة لكَ يا (شاويف)؟! رفعها أحدهم بين أصابعه، وسط ضحكات الزملاء. شاويف؟! لعلها رتبة جديدة، استحدثت و أنا في السجن. أخذت الرسالة، فضضتها، السطور غائمة، فركت عيني، لقد أعشى السجن عيوني، إنها تؤلمني، لا أطيق فتحها، اقرأ يا حامد:

حضرة الزوج الكريم، بعد السلام والتحية، نخبرك بأن ابنك نضال قد مرض، وارتفعت سخونته فأخذناه للطبيب، وبعد طول انتظار علمنا أنه التحق بالوحدات الأمامية، وبحثنا عن علاج فلم نجد فكل الدواء للمعركة!

جال بصري في عيون الزملاء! نعم كلّ شيء للمعركة.. هذا ما نسمعه في الإذاعة، ونشاهده في لوحات الإعلانات، وعلى واجهات دور اللهو، وجوانب الحافلات، ومواقف السكك الحديدية.

كل شيء للمعركة! شهادة الميلاد، وشهادة الوفاة، وعقد الزواج والطلاق، كل الرسوم والمكوس للمعركة.

كل الدواء للمعركة! وعندما أصيب صديقنا مجاهد ونزف طلبنا

كمية من الدم، فأجابوا بأننا في الخطوط الأمامية، وهناك صعوبة في وصول الدم إلينا، تبرعنا له من دمائنا، وعندما تزحلقتُ و انكشطت ساقي عالجتها بالطين...

أكمل يا حامد! توقّف حامد، تسمّرت عيناه فوق السطور، وارتجفت الورقة في يده.

ماذا؟ أكمل يا حامد، لماذا انعقد لسانك؟

ما... ما... مات ابنك، توفي الولد لعدم وصول الفلوس!

لماذا؟ ألسنا جزءاً من المعركة؟! ساقي وابني و صديقي مجاهد! ألسنا رموزاً على خريطة المعركة؟!!

سقطت الماسورة من بين يديّ، وتلقفني الجميع بالتعزية.

هذه الماسورة هي الوحيدة التي لم أسمع منها كلمة عزاء، هل أنت خرساء؟ انطقي، لن تنطقي!؟ سأجعلك تنطقين، تناولتها، شددت يدي عليها، أحسست لأول مرة بحنان غامر نحوها،حضنتها وكأني أحضن طفلي، قمت وعبرت الحدود، ولعلع صوتها، عدت إلى وحدتي وأخبرت الزملاء أنها وبعد عشر سنوات من الصمت تحولت إلى مدفع رشاش!.

تناقلت أجهزة الإعلام حديثها الصريح، وتم التحفظ عليها بإيداعها في مركز التحقيق، بينما أودعت مركز المختلين عقلياً!.

تأشيرة هجرة

ألقى بآخر قطعة ملابس من حقيبته في دولابه، فتح نافذة غرفته، وألقى بنظرة تائهة على ناطحات السحاب، ثم ألقى بنفسه فوق سريره. علق عينيه بسقف الحجرة، فرحلتا به عبر الزمان والمكان.

أطلّ عليه ذلك الوجه المعروق:

- أنت حاتم؟

- نعم

- من أين أنت؟

– من قعر الغربة إلى حضن اللهفة.

– وَلِمَ؟

– الخوف، والجوع، والظلمة، واليأس، والوحدة،والضياع أسباب كافية للعودة.

– كلا، نحن نعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك.

– اعترف تنج! وجودك في تلك البلاد لم يكن التعليم سببه، لماذا عدت؟

– حقاً، سأعترف لك: الشوق، الأمن، الرضا، الحي، الأسرة، الهواء، الشمس، اللّمة!.

– أنت تكذب، خذوه.

أخذوه ثم أعادوه، لم يَعُد كما أخِذَ.

الوجه المعروق: ماذا فعل بك هؤلاء المجانين؟

– لا شيء، أحدهم كانت قد سقطت أسنانه في الدفاع عن الوطن،فاحتاج إلى أسناني الأمامية. والتبرع لا يقتصر على الدم وحده.

أما الثاني: فهو من المدرسة التجريبية، التي لا تثق إلا بالتجربة، فعلى الرغم من أن كلّ كتب العلوم تقول: إن جسم الإنسان موصل جيد للكهرباء، إلا أنه يريد أن يتأكد بنفسه.

و أما الثالث: فالوطن بحاجة إليه، لأنّه سيمثلنا في الدورة الأولوية للمصارعة الحرة، وهو بحاجة إلى تدريب مستمر.

الوجه المعروق:

- أعتقد أنّك قد غيّرت رأيك الآن، وستعترفٍ.

- نعم، سجّل: الدفء، الحب، الحنان، صوت أمي، زيتون بلادي، صياح الديوك البلدية، وإعلانات الباعة المتجولين، والحاملون فؤوسهم عبر شعاب الجبال!.

- أنت تكذب، خذوه .

أخذوه ثم أعادوه، لم يَعُدْ كما أُخِذ .

- ماذا فعل بك هؤلاء المجانين؟

- لاشيء، ظنوني الواقف خلف الباب، ففتحوا في جسدي أبواباً.

- إذن ستعترف!

- اعترف نيابة عني، وسأوقع لك.

- الآن، والآن فقط نحن نرحب بك في بلدك.

تابَعَ تداعي الذكريات!

حمل جواز سفره، وصوراً عن شهاداته العليا، وتوجّه إلى ذلك المبنى القابع على التلة المجاورة لقوى الأمن، وقف أمام الأسوار،

أظهر بطاقته وشهادته، سُمِحَ له بالدخول، قدّم أوراقه، بعد لحظات، نودي عليه:

- مستر هاتيم.

سُرّ لسماع اسمه، وكأنه يسمعه أول مرة! امتثل، واقتاده أحدهم إلى غرفة أنيقة، بداخلها رجل أنيق.

- مستر هاتيم.

- نعم.

- أهلاً و سهلاً.

- أهلاً بكم.

- لقد تفحصت أوراقك، و سأوافق على طلبك تأشيرة هجرة إلى بلادنا، فنحن بحاجة إلى أمثالك، تعليمك العالي وتخصصك النادر جواز مرور، ولكن لِمَ تهاجر مستر هاتيم؟

- ليصبح اسمي مستر هاتيم، و لأنسى حرف العين، فأنتم تنطقونه ألفاً، وهذا سيسهل عليّ الكثير، وعلمت أنّ بإمكاني إجراء عملية لقزحية العين في بلادكم.

- ولكن لون عيونك مستر هاتيم جميل، نحن نحب اللون الأسود في العيون، ولا تنس أنّ العين السوداء الكحلاء أقوى وأحدُّ نظراً! ثمّ ماذا مستر هاتيم، أحسّ أنك تريد أن تقول شيئاً!؟

– نعـم مسـتر مورفي، علمت أنكـم تمتلكون محطات تقوم بغسـيل جيد، أريد أن أغسـل آلاف السنين من قلبي وعقلي! يجب أن أنسى وجه أمـي، وعزم أبي، وطعم الزيتون، ورائحة البرتقـال، ونوار اللوز، لأعود إلى وطني مبجّلاً..!

لـم يفهم مسـتر مورفـي أو لعله فهم! ناولـه جواز سـفره مدموغاً بتأشيرة هجرة.

مسالم بن محارب

أتساءل كثيراً عن سبب تلك الابتسامة الساخرة، التي تُولَد في وجه كل من يدعوني بهذا الاسم؟

وأغيب في غابة من أسماء، وأعود كحاطب ليل، أُضيء مصباحي ثم أَنثرها أمامي: جندل بن جبل، صعب بن سهل، طريد بن الشريد، حنظلة بن مرة! حتى النساء أسماؤهن فيها من الغرابة أكثر مما يوحيه اسمي، فهذه قرادة بنت اليعسوب، وتلك حية بنت حنش، وثالثة قبيحة بنت وضاح!.

ومع ذلك، فلا أتصور أن اسماً من الأسماء لاقى صاحبُه ما أُلاقيه،

من هذه الابتسامات الساخرة، التي تترعرع على الشفاه بمجرد ولادة اسمي على ألسنتهم.

بحثت عن سبب هذه السخرية، كنت أتمنى لو كان أبي حياً حتى أعرف منه سبب هذه التسمية، بحثت في كل أوراقه، عدت إلى كبار السن، ولكني كنت أصطدمُ في كل مرة بجدار السخرية ذاته.

كم أتمنى حياتك ليوم واحد يا أبي، لتحلّ لي هذا اللغز المُحيّرَ المزعج، أيكون ملَّ الحرب وأراد السلام!؟ أم أنه كان من المختصين في بديع البلاغة، فأراد المطابقة!؟ أم أنه رأى جسمي النحيل فأراد الرفق بي!؟ أم أنه لم يكن يفكر في كل تلك الأمور!؟ ويكون جَدّي أو أحد الأقارب، أو لعلّهُ موظف دائرة النفوس، هو الذي تولى اختيار اسمي!؟

كان البحث في هذا الموضوع يُؤجّجُ السخرية بي، وكانت الشفاه المزمومةُ والوجوه المكفهرّة تقول: لو أن كلّ واحد عاش يبحث عن سبب اسمه لتعطلت الحياة، فهناك أسماء أسوأ من اسْمِك، ومع ذلك فإنّ أصحابها يعيشون بلا قلقٍ أو أرق، ثم إن هذه الأسماء مجرد أداة للمعرفة لا أكثر، حتى الكلاب أصبح لها أسماء، ليعرفَها أصحابها بها!.

اصطدمت ببعض هؤلاء الساخرين، كنت أَشْتَطُّ في صدامي معهم، ولكنّ وُجوهَهُم الساخرةَ وتعليقاتِهِمُ اللاذعةَ تظل تتراقَصُ أمام عيني: كأشباحٍ في ليلةٍ حالكة السواد.

قال لي أحدهم: كن واقعيًا، فالواقع هو الواقع، لن تمحوه بانفعالاتك.

وقـال لي ثان: غير اسـمك، واخلُصْ من هذه المشـكلة! اذهب إلى دائرة سجلّ النفوس، وبدِّلْهُ إلى اسم آخر يريحك، وتنتهي معاناتك.

و يصـرخ آخر قائلاً: إياك أن تفعل ذلك، فهـذه خيانة! نعم.. إنك بتبديل اسمك تخون أباك، إذ تُغَيِّرُ اسماً به سمّاك.

ويتدخل المتدخلون: أهذا هو البر بالآباء بعد وفاتهم، أم هو العقوق الذي أصـبح العلامة المسـجلة لهذا العصر؟ لم أسـتمع لكل رغائهم، فقـد كانت هذه الفكـرة الغائبة هي الدواء المنتظـر، والمنقذ الأعظم الذي كنت بانتظاره!.

عـدت إلـى البيت، ودفنت نفسـي بين كتب التراجم، لأختار اسـماً مدويـاً، يـزرع الرعـب فـي القلـوب والمفاصـل، ويزلزل هـذه الوجوه السـاخرة قبل نطقه، الضباب يغشـي عيني لكثرة الأسماء المتشابهة، أصابعي تنـزل وتصـعد، وكأنها سرب طيور ينـزل إلى سطح البحر، ثم يصعد إلى أعلى الجبل.

كان قلبي يخفق عند كل اسـم له معنى جميل أو فضـيل أو كريم أو عظيم! وفجأة يقف إصـبعي عند اسـم له من الروعة والهيبة ما له من الصيت والدَّوي! ولكني صرفت النظر لخوفي من أن ينقلب السحر على السـاحر، وتزداد السخرية، فهل يحق لمثلي أن يُسمى بهذا الاسم، وفي هذا الزمن بالذات!؟

ويقف إصبعي مرة أخرى عند اسم رشيق أنيق، إنه هو لا غيره، وأمسكت به إمساك الجائع بالرغيف، والموعود بالوعد، والمنتظر بالبشرى.

إنـه عاهد، يـا له من اسـم مهذب أنيق، تلفظه الشـفاه بكل يسـر وسـهولة! عاهـد، نعم اسـم يحمل معنى العهـد يا أبي، ولـن أخونك أو أعقك، سأغير اسمك إلى مجاهد، أعلم أنك لن تغضب مني، فمحبتك لولدك، وحرصـك على مكانته بين الناس يمنعانك من أن تغضـب! ولو كنت حيًّا ورأيت كيف يسـخر من ابنك، لاقتنعت بصـواب خطتي، ها.. لن تعتب أو تغضب يا أبي؟ عاهدني على ذلك.

جهزت نفسـي صـباح اليوم التالي، واصـطحبت معـي كل الأوراق الثبوتيـة حتى الشـهود، وتوجهت إلى دائرة سـجل النفوس. عملت كلّ الإجراءات دون تأفُّف، فعادتي أن أتضـجر من هذه، التي لها أوّل وليس لها آخر، لكني كنت مقبلاً عليها، حريصـاً على أدائها، من تقديم طلب وتعهد، تتعهّد فيه بأن لا تغير اسـمك مرّة أخرى مهما كانت الأسـباب، وأكملـت ما أحتاج إليه من طوابع وأختـام وتوقيعات، كان رقمها الثالث عشـر توقيع المدير العام، بعدها توجهت للصـندوق ودفعت الرسـوم، وقالوا: موعدك غداً الساعة الواحدة.

يكاد قلبي يخرج من بين ضلوعي، وأنا بانتظار وليدي القادم، الذي سـيملأ عليّ حياتي بالأمن والطمأنينة، بعد لحظات سأتسـلم شهادتي الجديدة، أكاد أطير من الفرح.

صـوت الموظف بدأ يعلو منادياً، الآن يصـل اسـمي، ها.. لعله بعد هذا، أو بعد هذا.

رقم ١٣ (معاهد بن مجاهد).

أيكون قد أخطأ؟ أم أنّ السمع قد خانني؟ أنا عاهد ولست معاهداً، لا بدّ أن يكون هناك خطأ ما..!

أخذت شهادتي، نظرت في الاسم، فإذا هو معاهد، أسقط في يدي، وتطلعت حولي، فإذا بالابتسامات الساخرة كالسياط اللاهبة تجلد اسمي الجديد!.

صاحب الكلب

اغتنمت فرصة وقوفي عند الإشارة الحمراء، فأدرت مؤشر المذياع.. صوت يطل عليَّ من المذياع، ما هذا؟ ما الذي أسمع؟

حرّكت المؤشّر إلى الأمام والخلف، والصوت يزداد حدّة، ويتكرّر في جميع الإذاعات؟ تتسع مساحة الدهشة..! ويتسع معها تساؤل مرير: هل اتفقت إذاعاتنا العربية على توحيد الإرسال؟ صوت النباح يقف عند صيوان أذني، نعم إنّه نباح كلب، أو لعلّه عواء ذئب! فالضجة من حولي التي يختلط فيها كل صاحب صوت في السوق تجعل درجة التمييز متدنية، ولكنني واثق أن هذا الصوت يقع بين النباح والعواء ولا يتعداهما..

ولكـن لماذا هذا الاتفـاق؟ وهل الوحدة تعني سـماع صـوت واحد وأي صـوت! هل شـح المذيعون؟ لا، لعل ذلك من برامج الهواة، أو لعله تمثيلية تتحدّث عن الفرزدق الشاعر حين التقى الذئب، فعوى ثمّ أقعى، فارتجز، فهاجه، أو أنّ أحد المتشائمين يحدّثنا عن ذاك الذي استأنس بصوت الذئب، فقال:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـوّت إنســـان فكـدت أطـير

أو..أو.. أو...، ولكنّ لفتة غير مقصودة إلى السيارة جارتي انتزعتني مـن بحر الحيرة والتفكير، وجعلتني أطمئن على أنّ إذاعاتنا لم تصـل إلى هذه الدرجة الميؤوس منها.

فصاحب الصوت ذو فرو أبيض ناصع كالثلج، وقد أقعى على فرش مخملي وردي، ومع أنّه مطوق بطوق من ذهب إلاّ أنّه كلب!.

أقفلت المذياع حتى لا يشـوش عليّ متعة النظر وحُبّ الاسـتطلاع، فأول مرّة أرى الكلاب المحترمة.

لفتة أخرى إلى مقود السـيارة، نقلتني إلى حيث يجلس ذلك الرجل المتأنق، فشـعره الأشـقر المسـرّح، وسـيجارهُ الغليظ، وكلبه المدلّل، وسيارته الفارهة، كلُّ ذلك يدلُّ على أنّه من ذوي الحيثيات.

قلت: لعلّه واحد من هؤلاء الوافدين على بلادنا بدرجة خبير، فهيئته تظهـره على أنّه من الذيـن نالوا حظوة في بلادنا أكثر من أصـحابها، وأكثر ممّا نالوه في بلادهم.

ركّـزت النظـر على وجهـه، ثبّتُّ عينـيّ على ملامحه، ليسـت هذه الملامح غريبة علـيّ، لعلّي أعرف هذا الوجه، من المؤكّد أنّني أعرفه، فسيماه مألوفة لديّ!.

ابتدأت أعود بالذاكرة إلى ما اختزنته من صور.. مرّ الشريط بسرعة، وقبل أن أتثبت منها انطلقت أبواق السيارات المرصوصة خلفي، والمنـزعجة من تأخري في الانطلاق بعد تحوُّل الإشارة إلى اللون الأخضر.

انطلقت بسـيارتي بعد أن اهتزّ شـريط تخزين الذكريات والصور. حاولـت إعادة ترتيب اللقطات في ذاكرتي، سـرتُ والكلب أمامي، يطلُّ عليّ من نافذة سـيارته الفخمة، وفمه مفتوح على آخره، ولسـانه يتدلّى على حافة النافذة، وكأنّه يتحدّاني، ويقول مغيظا: إن كنت رجلاً فاعرف من يكون صاحبي؟!

ابتلعـه منعطف مـن الطريق، حاولـت أن أتبعـه، لـم أتمكّن، فقد فصلت بيننا إشارة أخرى.

عدتُ إلى المذياع، أدرت المؤشّـر، بدأ الصـوت، فحمدت الله على أنّي لم أسـمع صـوت الكلب، وإنما هو صـوت أحد المذيعين المعروفين يقرأ نشـرة الأخبار، وكان اعتـداء الطيران الإسـرائيلي على المفاعل الـذري العراقـي والشـجب العربي محـور أنبائه، على الرغـم من أننا قرأناها في صحف الصباح!.

ظلّت ملامح صـاحب الكلب مرسومة أمام عينيّ إلى أن وصلت إلى البيت.

التفّت ساعدا طفلي الصغير حول ساقي، سرت وهو متعلق بي. التقت عيناي بعيني زوجتي المستنكرتين انشغالي عن ولدي الذي يظهر من ملامحي الشاردة، وعدم اكتراثي بلقائها ولقائه.

سألَتْ: هل يؤلمك إلى هذا الحد غارة الطائرات الإسرائيلية على المفاعل الذري؟

لا، ليس هذا ما يشغلني، ما يشغلني حقاً هو صاحب الكلب، ذلك الرجل الأنيق الذي رأيته قبل قليل يقود سيارته، نعم، إنّي أعرفه لقد رأيته، أين.. أين!؟

وضجّتْ زوجتي: كلُّ شخص تراه تمكث فترة وأنت في حالة انشداه؟ ما هذا؟ لا بدّ أن تعرض نفسك على طبيب نفسي.

لا، لا يا زوجتي، لست مريضاً ،ولكنّي لا بدّ أن أعرفه، أنا أعرفه حقاً، إنّي أتحدى الذاكرة والنسيان، أين رأيته؟ لعلي رأيته في أحد الاجتماعات، أو أمام أحد النوادي، أيكون لاعباً أو ممثلاً؟ أو إني رأيته في برنامج (سين جيم).

أين؟ أين؟ رأسي يكاد ينفجر، لا بدّ، لا بدّ من معرفته، الحيرة تتملكني، توترت أعصابي، أخذت أذرع غرفة الجلوس جيئةً وذهابا.

صوت مذيع التلفاز يبدأ قراءة نشرة أخبار الثامنة مساءً: السيد رئيس الأركان يعقد مؤتمراً صحفياً للردّ على الإشاعات حول مرور طائرات العدو واختراقها لأجوائنا في أثناء ضربها المفاعل. لفتة غير

مقصودة، جعلتني أقفز فرحاً كالطفل الصغير، وأهتف: إنّه هو! الشعر الأشقر المسرّح، والسيجار الغليظ، ولا ينقصه إلّا السيارة الفارهة والكلب المدلّل! وأحسست بفرح عظيم، لأنّني استطعت أن أؤكِّد لزوجتي سلامة عقلي، وقوّة ذاكرتي.

لعبة الكالة

ثلاثة الأشهر التي يحتاجها ليتمّ السادسة حرمته من دخول المدرسة، على الرغم من أنه يتفوّق على أبناء الحارة في الطول وأوليات التعليم، من: حفظ بعض السور القصيرة، والأناشيد الخفيفة، والعد حتى المئة.

ومع ذلك فهو يحسُّ الآن بألم شديد، لأنّ هذا التفوق بدأ يتناقص، فلقاؤه بأولاد سنّه يؤكّد له أنّ معرفتهم أصبحت أوسع من معرفته، فهم يقرؤون ويكتبون بعض الكلمات التي تعجزه، فيقف حائراً خجلاً، ولكنه يطمئن نفسه، فيتوعدهم قائلاً: عندما يأتي العام القادم سأثبت لكم تفوقي.

فـي إشـراقة كلِّ يـوم كان يمنّي نفسـه بالحذاء الجديـد، و البدلة الكاكي، والحقيبة الجلدية، وسـيرفض بإصرار أن يلبس قديم إخوانه! وهـو إن كان يقبـل فـي السـابق فلأنـه صـغير، ولا يلتقـي بالمعلميـن والتلاميـذ، إذ إنّ الخـروج إلى مجتمع المدرسـة لا بدّ له من هيئة تليق به، كما كان يقول والده.

ولكـن الانتظار صـعب، والوقـت طويل.. فالسـنة لم تبـدأ إلاّ منذ أسـابيع قليلة، وها هو ذا غسان ابن الجيران الذي كان ينفق معه بعض الوقت، سـينتقل للعيش مع والده الذي يعمل في الخليج، ماذا يصـنع؟ لقد ضـاقت عليه الدنيا، لذا فهو يعاود طلبه القديم، ووعد والده الذي لم ينفّذ، وكلّما ألحّ على والده في تنفيذ وعده بشـراء الدراجة، أسـمعه والـده أموراً لا تقع في بؤرة الفهم لديه: فالغلاء، والحرب الاقتصـادية التي تشنها إسرائيل على منتجاتنا، من منع التصدير، وضرب الأسعار، والظروف الصعبة التي نمر بها، كلُّ ذلك لم يمنعه من تكرار طلبه.

وفي كلِّ جولة تحصـد أذناه الصـغيرتان أرقاماً وإحصائيات ليس معنياً بها .

و في نوبات إلحاحه، نظر والده إلى ساعديه الممتلئتين ثم قال له: اذهب والعب «الكالة» يا داود.

شـهق داود، وارتفع حاجباه، فقد ظنّ أنّ والده قد أحضـر له اللعبة الموعودة، فصاح بفرح طفولي:

الكالة؟ وأين هي يا أبي؟ ومتى أَحضرتها؟ أهي جميلة؟

وهل أستطيع أن أركبها ؟

وهـل تسـير بالكهربـاء ؟ أم أنّها تعبّأ كلعبة صـديقي غسـان التي أحضرها له والده في صيف العام الماضي .

كلُّ تلك الأسـئلة ووالده يكتم ضحكة مشوبة بالأسى، ثمّ مدّ يده إلى جيبه، وقال له: خذ هذه القروش الخمسـة، واشـتر بها حلوى من دكان أبي العبد، وفي المساء تلعب الكالة مع إخوانك.

جرى إلى الدكان، وهو في شـوق للشـراء، ولكن لعبـة الكالة كانت تسـيطر علـى حواسـه، لم يترك مـارّاً في الشـارع إلاّ وسـأله عن لعبة الكالـة، وفي كلِّ مرة كان يسـمع إجابات متشـابهة، ولكنها غير مقنعة! وإن مـن غير الممكن أن يهزأ به والده، فمـا هي القنطرة من الحجارة المصـفوفة بعضـها فوق بعض؟ وما الفريقان؟ والتصـويب والفوز؟ ما هذه الألغاز؟

وفي الطريق شـاهد عدداً من الفتيان يقسـمون أنفسـهم فريقين: فريقا إلى جهة الغرب، وآخر إلى جهة الشرق، ثمّ يتقدّم أحد اللاعبين ليمسـك بحجر كروي الشـكل، ويتهيأ ، فيتقدّم ويتأخر بضـع خطوات، ثمّ يصـوّب ويلقي بحجر من يـده كالقذيفة، فيصـيب أو يخطئ، لتعلو صيحات الفرح أو الشماتة. وأكثر ما شدّ انتباهه، مخاطرة بعض الفتيان بأنفسـهم، حيث يضـع أحدهم رجله أمـام قنطرته في أثناء تصـويب لاعب الخصـم، وهو يصـيح بأعلى صـوته: (برجلي ولا بكالتي) وكأنه بهذه الحركة يخلخل دقّة الخصم في التصويب.

إذن هذه هي الكالة؟ لم يشتر الحلوى، وإنما عاد إلى البيت كاسف البال على هذه المفاجأة التي لم يتوقعها.

كانت آماله تتسع دوائرها لتصبح بحجم دوائر عجلات الدراجة، وإن ضاقت وتعللت بالقناعة، رضيت بسيارة تسير بالتعبئة لا بالبطارية، أو بذلك الطبّال المشهور الذي يجلس وطبله بين رجليه، كلّما حُرّك مفتاحه تحركت يداه بعيدانه تضرب الطبل.

ألم تشتر الحلوى يا داود!؟ سأله والده.

لم يرد، ولكنّ حركته دلّت على يأسه.

أصوات إخوانه العائدين من المدرسة خففت حدّة اليأس في نفسه، وبدأ حزنه يتلاشى عندما انخرط معهم، يسمع أحاديثهم وأخبارهم عن المدرسة، وبعد الغداء، قال الوالد مداعباً: بعد العصر خذوا أخاكم وعلّموه لعبة الكالة.

لم ينتظروا العصر، وإنما انطلقوا من فورهم بصراخهم وضجيجهم إلى البيدر، و ما هي إلّا لحظات حتى بدأت مباراة الكالة.

لم يتقدم داود، ولكنه بدأ يشعر بالحماسة، وهو يسمع الأصوات المهلّلة أو المعترضة.

ترك موقف المراقب، وانزلق مع إحدى الفرق، وانطلقت يده تصوّب الحجارة إلى قنطرة الخصم، وفجأة انهارت القنطرة بإصابة محكمة منه، دوّى على إثرها التصفيق والهتاف والثناء!

أحسّ داود بصدره ينتفخ، وقامته تمتد.

كانت هذه البداية المشجعة حبل الوصل بينه وبين هذه اللعبة، وصار كلّما دخل اللعبة يصيب نجاحاً مما زاده اعتداداً واهتماماً، بل أصبح الفرقاء يتنافسون عليه.

أخذت لعبة الكالة منه كلّ وقته، ونسي دغدغات الدراجة، أو ملابس المدرسة الجديدة، انزوت تلك الأحلام لتتسع دائرة الكالة من حوله، فغدا في كل مساء يجمع أطفال الحارة ويقسمهم إلى فرق تماما كما يفعل مدربو الكرة، ولذا كثيراً ما تراه منقلباً على ظهره، وهو يتابع الكيفية التي يتم بها تقسيم الفرق الكروية في منافسات الكأس.

شغلته حماسته للكالة عن كل تفكير، لدرجة أنه كان يعود مساءً، ومعه بعض الحصى يوزعه فوق الحصير إلى فرق، فهنا فرقة الحارة الغربية، وهنا الشرقية، وهناك الجنوبية، ثلاث مجموعات فقط، فالجهة الشمالية من البلدة واد عميق، ومنحدرات صخرية وعرة لا تصلح للبناء .

كم كان يتمنى أن تتعدّد الفرق، ليخرج بأكبر قدر من المجموعات، ولكنه يرضى بالواقع، ويبدأ بالنداء على اللاعبين:

أنت يا زياد قف هناك أمام الكالة، وأنت يا رياض اجمع الأحجار، وسليم ومحمد قفا خلف بعض.. وينطلق في الترتيب والتنظيم، حتى تضج المباراة في قلبه، فينطلق لسانه بالتشجيع والتوبيخ.

أحسّ والده وهو يراقب اندماج ابنه في اللعبة بشيء من الأسى، وعزم في قرارة نفسه على تدبير ثمن الدراجة، ومفاجأته بها عندما يذهب إلى المدينة.

في صباح اليوم التالي، وفي أثناء استعداده للسفر، حضرت دورية لقوات الاحتلال ومعها جرّافة، وتوجهت إلى بيت أبي عبية، لحظات وبين الصراخ والدموع والاحتجاج، طار البيت في الهواء.

غادر الجنود البلدة، وهم يظنون أنهم لقنوها درساً في الطاعة.

تجمع أهل البلدة وهم يحوقلون ويشتمون، كان داود يسمع من بعيد الحوار الدائر بين الرجال المتحلّقين حول الأنقاض، مواسين، أو معرِّضين بابنه المنضم للفدائيين، أو متبرعين ببعض المال، أو متعاونين لإعادة بناء البيت، مع ما في ذلك من معاقبتهم من قبل العدو، وإعادة هدم البيت.

كان داود يصغي لهذا الحوار، وإذا به يتدخل قائلاً: الحل أن نلاعبهم الكالة.

شرّ البلية ما يضحك، ما بقي إلا الصغار! اذهب يا ولد.. العب وحدك. هذا ما سمعه منهم، ولكنه أصر قائلا: ألم يهزم سيدنا داود جالوت العملاق بحجر؟ وأن يبني مع قائده الفلسطيني عيطاي دولة مؤمنة؟

ويرد أحدهم: ذاك زمن مضى، وهذا زمن الصواريخ والقنابل.

ظلّت فكرة مبـارزة اليهود بالكالة تتردد علـى ذهن داود الذي بدأ ينقلها إلى كل أعضاء الفرق.

محاولة إعادة البيت المتهدم وصلت إلى قوات الاحتلال التي جاءت على عجل،لتتأكد وتهدد وتعتقل.

أشـعت حماسة الكالة في عيني داود، فأخبر الفتيان الذين وافقوه، وانطلقـوا يكمنـون في الأماكـن التي حـددهـا لهم، وظـلّ هـو يـراقب وصـول الدوريـة، ومـا أن اقتحمـت أزقة البلـدة حتى انهـال وابل من الحجارة عليهم، تحطمت السـيارة، وأصـيب الجنود بجروح لم يعرف مداها!.

لعلّ هذه الحادثة هي التي أشـعلت فتيل ثورة الحجارة، أو لعلّ داود كان موجوداً في كلّ بقعة، وفوق كل حجر من أحجار فلسـطين! على كل حال لم يعرف الذي أشعلها، أهي هذه الحادثة؟ أم الحجارة نفسها؟ أم أرض الحجارة؟ أم أَهْل الحجارة؟ فاشـتعالها في آن واحد، ودون اتفاق مسبق يدلُّ على أن الأرض والناس والحجارة قد اشتعلوا في آن واحد!.

امتلأت الأرض بالدوريات، ولم يعد داود وفرقته فقط، فكلّ الأيادي فوق سطح الخريطة أصبحت تلعب الكالة، وتأتمر بإشارة من داود .

ظلّ داود كالصائد الماهر واللاعب المحترف، يوجه فريق الخصم إلى نقطة الضـعف ليحقق الفوز، أو الإصابة المباشرة، وفي لحظة من لحظات التجلي، زلقت رجله فسقط من على مرتفع.

لم يحترم الفريق الخصم قوانين اللعبة وآدابها، فانقضّ عليه، وكانت النتيجة ذراعين مكسورتين.

في المستشفى كان داود يسأل كلّ من يمر على سريره عن المدة التي سيقضيها ليبرأ، ويعود إلى لعبته المفضلة، وهو يؤكّد للجميع أنّه المنتصر على الرغم من الذراعين المكسورتين!.

أحلام مدمن

يسمع أصوات سيارة الشرطة المتتابعة كأنه بين أذنيه، يصاب بالاضطراب، ويهمهم: منذ أن صدرت هذه القرارات المشؤومة، تركوا تنظيم السير، ومتابعة المجرمين، وانشغلوا في البحث عنا.

لقد سببوا لي صداعاً دائماً، فزعيق سياراتهم يؤرقني، يُفزعني، أحسُّ بأنّ شرطياً بمسدسه وصافرته يختبئ تحت مخدتي.

لقد تضاعفوا هذه الأيام، وكأنّ قرارات منع المخدرات تتناسل رجالاً من الشرطة، فهذه الأعداد المتوالية التي تملأ الشوارع جيئة وذهابا لا تفسير لها غير ذلك.

إنهم لا يصنعون شيئاً، ولا عمل لهم سوى ملاحقتنا، هل استتبّ الأمن؟ واختفت الجرائم؟ وعاش الذئب والحمل متجاورين؟ أنا أعلم أنها فرصتهم، حقاً إنها فرصة رائعة لإضاعة الوقت، وقبض الراتب في آخر الشهر! فهم لا يتركون مكاناً بعيداً عن العيون، أو خالياً من الناس، إلاّ حثُّوا السير إليه، وهناك يمضون الساعات في تفحصه، والتأكد من خلوه من مدمن، أو مروِّج، أو مهرِّب، ويضيع اليوم، والذي يليه.

يا لها من خدعة غبية انطلت على الدولة!! والمستفيد الوحيد هم رجال الشرطة.

سأذهب إلى مكان أمين، بعيداً عن العيون، وبخاصة عيون أولئك المتطفلين، الذين ينفخون صدورهم عندما يبلغون الشرطة عن مدمن، فتنشر الصحف صورهم، ويكافئون على هذا العمل الدنيء، بالنميمة، وإفشاء أسرار الآخرين.

سيندمون حتماً على هذا العداء، وسيدفعون الثمن غالياً عندما نتسلم زمام الأمور.

لقد قال لي بائع المخدرات في المرة الأخيرة: اليوم الذي نحكم فيه قبضتنا عليهم قريب، وعندها سنذيقهم من العذاب ضعفين.

ظلّ يسير مسرعاً كفأر مذعور، ينظر بعينين زائغتين، يهبط منحدراً، ويلتوي في ثنية، حتى وصل إلى زاوية موحشة في قبو مظلم، في بناية قديمة مهجورة.

رائحة العفونة تسيطر على الجو، أصوات البعوض تصكُّ أذنيه، لدغته واحدة، ضرب وجهه بيده، وأخرى، وأتبعها ضربة ثانية، لعله يتآمر مع الشرطة، أو أنه مخبر، لا، لا يخرج البعوض إلّا بإثارة الدخان، نعم سأشعل الآن سيجارتي، بعد أن أملأها بالسِّحر.

الآن أحيا، أعيش حياتي، أملك دنياي، القبو مملكتي، يتسع أمامي، سأطرد البعوض المتآمر، وكلّ مدّعي الطهارة.

أين هي؟ في جيبي الأمامي؟ لا، في الخلفي؟ إنها في الجيب الداخلي! أين ذهبت لقد لففتها جيداً في ورقة قصدير، على الرغم من صغرها الذي لا يتجاوز حبة الحمص، لكنني دفعت ثمنها غالياً، إنّ الحصول هذه الأيام على حبة في مثل حجمها يكلّف كثيراً من المال..! المال لا يهم، ولكنّ المخاطر التي تتعقبك وأنت تبحث عن البائع!

إن الدم يجفُّ في العروق وأنت تتوقع كلّ لحظة أن يقبض عليك، وتكاد روحك تُزهق من بين جنبيك إذا ما تخيّلت أنّ البائع نفسه قد يكون مزيفاً ويلبّسُ عليك، إنّه الرعب الذي يسيطر على كلِّ حواسك، وأنت تبحث عن شيءٍ يسير لا يتجاوز حبة الحمص.

لم أفهم إلى الآن سبب محاربتهم لهذا البلسم، لبساط الريح الذي يحملنا إلى مدائن فسيحة؟ ألأنهم مقيدون بالماضي، ويريدون تقييد المستقبل؟ نعم، إنهم مثقلون بقيود العادات، فهم لا يستطيعون التحليق، ومع ادعائهم النزاهة والعفة،إلّا أنهم كالخفافيش لا يطيرون إلّا ليلاً، أما نحن فنطير في وضح النهار!.

ومـع ذلك فأين أنت يـا غاليتي؟ يخرج محفظته، وعلبة سـجائره، جميع أوراقه، باطن جيوبه، يا إلهي..! أكاد أجَن، أتكون قد سقطت مني في الطريق، وأنا أتسـلّلُ إلى هنا؟ وهل أستطيع العثور عليها بين أطنان ركام المخلفات التي مررت عليها؟

وعاودَ البحث بسـعار محموم، وهو يحدّثُ نفسـه: لماذا لا يتركوننا وشأننا؟ أحقاً ما يقولون: إنها تعطّلُ العمل، وتضيع الوقت!؟ هناك ألف وسـيلة ووسـيلة لإضـاعة الأوقات، ومع ذلك فالوقت معك ليس ضائعاً، خلـع معطفـه، نقّبه تنقيبـاً، وأخيراً.. يـا لك من مخادعـة! لقد علقت بطرف الزر! تعالي إليّ.. تعالي، إنهم يبنون مستشـفى للمجانين، وداراً للعجزة، فلماذا لا تكون هناك مدينة للمدمنين..؟!

نعم مدينة تجمعنا، مدينة لنا وحدنا، وألقمها سيجارته، ثمّ أشعلها، أخذ نفساً عميقاً، تلاه آخر أعمق منه!.

إنها مدينتي أنا، أنا مؤسسها ومصممها، سأجعلها من أعظم المدن وأجملهـا، سـكانها نحن فقط، سأقصـرها على المدمنيـن، وأجعل لها دستوراً، وكلٌّ من يحافظ عليه، ويعمل به يصبح مواطناً صالحاً، له جميع الحقوق، وليس عليه شـيء من الواجبات الثقيلة، لن أفرض على سـكان مدينتي أيّ قانون يحدُّ من حريتهم، أريد سعادتهم فقط، أريد أن أحقق لهم ما تحققه لي هذه القطعة الصغيرة التي حشوت بها سيجارتي.

لن أزرع في مدينتي أيّ نوع من الأشـجار والحشـائش التي لا فائدة منها، لن أصـنع كما تصـنع البلدية التي تنفق الكثير من الوقت والمال

على عمالها، إنها تدفع الرواتب والأجور، وأثمان المياه، وأدوات التقليم، والأدوية، كلُّ هذا من أجل أن تزرع حشائش لا فائدة منها، ثم يأتي المتطفلون فيدوسونها، ويقلعونها ويلقون بقماماتهم عليها.

يالهم من بلهاء! ويصفوننا بالبله؟!

إنهم مفرِّطون، لا يعرفون كيف ينفقون أموالهم .

أما بلدية مدينتي فسأغرس فيها البذور والحشائش التي تجعلنا نعيش بسعادة غامرة، سنحترم هذه المزروعات، وسأحيط مدينتي بسورٍ عالٍ، يمنع أعين المتطفلين. سأجعل هنا مسبحاً، وهناك نادياً لكبار المدمنين، وسأكون رئيس النادي، لا أريد سيارات في مدينتي فنحن لا نحب الضوضاء.

تراخت قدماه وهو يعبُّ دخان سيجارته، وتابع أحلامه، أخذ أنفاساً متتالية من عقب سيجارته الذي يكاد يلتهم إصبعيه، أمسكها بأطراف أظافره، أخذ نفساً أخيراً، فتعلق بشفتيه، تلسعه حرارة الشعلة، يرخي شفتيه، و يقعي على ركبتيه، ثم يسقط أرضاً.

الشرر المتبقي في الشعلة سقط على أرض القبو الممتلئ ببقايا القش والملابس البالية، بدأ الدخان تحته ينشط قليلاً قليلاً، وهو يأخذ النفس تلو النفس واضعا أصابعه على فمه، وكأنه لازال يعبُّ من سيجارته!.

عاود أحلامه، إنهم يعتدون على مدينتي، هاهم، أشباحهم تتراقص أمام مخيلتي، أصوات أبواق سياراتهم المجنونة تضجُّ في أذنيّ،

هاهم يعتدون على سكانها، لماذا يركلون ذلك المسكين الذي يشرب النارجيلة؟ و لماذا يضربون هذا؟

أخ... أخ ، إنهم يضربونني أنا..!!

لماذا تقومون بضربي؟ نحن نعيش حياتنا، وأنتم تعيشون حياتكم، هل أسأنا إليكم!؟

لماذا هذا العدوان والتسلط؟ ويحسُّ أن أحدهم قد وجّه له ركلة شديدة في بطنه، فيصرخ ويتلوى، يرفع يديه وهو يصرخ بأعلى صوته: لا..لا..لا تهدموها، إنها مدينة أحلامي...

الجرّافات تجرف المباني.. إنها تتوجه نحو النادي، تغرس أسنانها في جداره، تنقض عليها بكل قوتها، تتأخر وتتقدم تضربه، لازال صامداً.. لا شك أنه سيصمد، ولكنها.. يا إلهي.. إنها تصدّع جداره، يتشقق، بدأت تغرس أسنانها المفترسة في لحمي، في جداره. الغبار يملأ المدينة، سقطت واجهة النادي..

و قام من فوره صارخاً.. النار.. النار.. النار، تكاد تلتهم جسده الخائر.. النار التي أتت على ملابسه، وبدأت في التهام أعضائه جعلته يصحو قليلاً..

ماذا؟ إنهم يحرقونني، وخرج من القبو، والنار تكاد تأتي عليه، وهو يصيح ويصرخ..

و أقبل عليه الناس، وغمروه بملابسهم وأرديتهم، و أطفؤوا أحلامه التي أحْرقت واقعه!.

دراجة الموت

الجـو المتشـح بغيـوم التوتر ينذر بعاصـفة هوجاء، وريـاح الحقد المنبعثة من رصاصـات الغدر تـروي كلّ بارقة أمل، وسـواعد الأطفال الغضة تموج كحقل سنابل، وأصواتهم تشعرك بالنضج قبل الأوان.

الشـمس تلملم طرف ثيابها، وترحل عن يومٍ كئيب آخر، من أيامها خلّفته وراءها، وعلى آخر خيط من خيوطها.

كان أهـل رفح يوسـدون آخر ضـحايا هذا اليوم، أرملة شـهيد من شهداء الانتفاضة السـابقة، كانت ترجم جنود الاحتلال لتنتقم للوطن ولزوجها، فلحقت برفيق دربها.

عادت أم شهاب من بيت العزاء بصديقة العمر وهي تحوقل وتُرجِّع، وتذرع الردهة الصغيرة بخطواتها المضطربة، ويديها اللتين لا تثبتان على حالة: عقمت النساء، وماتت النخوة، لم يعد لنا كرامة، المرأة تخرج لترجم اليهود، ودبابات العرب وطائراتهم وصواريخهم رابضة في مرابضها!.

اشتدّت حدّتهُا.. أين الرجال؟ أين الأبطال؟ أين الزعماء؟ أين المعتصم؟ أين صلاح الدين؟

وانهارت على مقعد قريب من باب غرفة ابنها ذي العشرين ربيعاً.

أحسّت بحركة غريبة داخل الغرفة، ولكنها لم تدفعها لمعرفة الأمر، إلاّ أنّ صوت التلفاز الذي علا ليبثّ خبراً عاجلاً عن قصف الطائرات الإسرائيلية لبعض الأحياء السكنية في كُلٍّ من رفح ونابلس ورام الله دفعها إلى الإصغاء، ثم تبع ذلك صوت مطربة تشدو بصوت حماسي: «وين الملايين؟ الشعب العربي وين؟ الدم العربي وين؟».

وبحركة لا إرادية، انتفضت وضغطت على زر الإطفاء، هل كان ذلك احتراماً لذكرى الراحلة جارة العمر التي فقدتها؟ أم أنه اشمئزاز من كلِّ الكلام الذي قيل ويُقال!.

صَمَتَ التلفاز، ولكنّ أشياء كثيرة في الغرفة تنطق، فشكل ابنها، وحركاته، وملابسه الثقيلة، ونظراته لأمه تكاد تنطق، يكاد المريب أن يقول خذوني!

تمتمت: ماذا يخفي هذا الولد؟ يخرج ويدخل يخفي أشياءَ عني، الشبان مشغولون بالانتفاضة، وهو مشغول بنفسه، ألقت عليه سؤالاً، ومشت دون أن تنتظر الجواب: كل الشباب جاؤوا للعزاء!. تمتم: أُحَضِّر للامتحان، أخبرنا الدكتور بذلك إذا فتحت الجامعة أبوابها.

كأنها لم تسمع، أيُّ جامعة؟ وأيُّ امتحان؟ ليتني... ولكنها لم تكمل.

أحسّت بشيء من الانقباض، هل سبب ذلك يعود إلى موت الجارة؟ أم لشكل ابنها المريب؟ فمن الذي يلبس مثل هذا اللباس الثقيل وقت النوم؟ أم لأنها تحسُّ بأنه لا يشارك في الانتفاضة؟

الحال أقوى من السؤال، ومن الإجابة، ومن البحث عن سبب للتنغيص.

اتكأت على طرف السرير، فلم تشعر إلاّ وضوء الشمس يتسلّلُ من النافذة، سمعت صوت إغلاق الباب، قامت متعجلة لتلحق به قبل أن يغادر، إنه متعود أن يتناول طعام الإفطار من يديها.

لأول مرة يفوت عليها ذلك، ما إن فتحت الباب حتى رأت ابنها يغادر مسرعاً على ظهر دراجة.

اضطرب قلبها، لا تعلم أنه يعرف قيادة الدراجة، ثمّ من أين له هذه الدراجة؟

أغلقت الباب وهي تحس بشيءٍ ثقيل يجثم على صدرها، بل إن

خوفـاً غامضـاً ينتابهـا، تذكرّت أبناء جارتها، أسـرعت إلـى المطبخ، سأجهز لهم الإفطار، والذي كنت أجهزه لشهاب.

ابتسـمت وهـي ترصُّ الصـحون فوق الصـينية، وذهبـت، قدّمتها وعادت.

دخلت غرفة ابنها، أخذت تلتقط أشـياءَه المبعثرة، الساعة تقترب من التاسـعة صـباحاً، موعد نشـرة الأخبـار، فتحت التلفـاز، بانتظار الأخبار، رتبت شرشـف السـرير، كتاب على المخدة.. أخذته يبدو أنه عـن عزالدين القسـام، فصـورته بلحيته المهيبة تظهـر على الغلاف، سـقطت منها ورقة، التقطتها، فتحتها، قرأت: لا تيأسـي يـا أمّاه، فلن تكوني عقيمة، وأرضنا ستظل حبلى بالرجال.

زمّت شـفتيها باسـتغراب، ظهر الخط الأحمر على شاشـة التلفاز للخبر العاجل: «شاب على دراجة نارية يفجِّر نفسه في موقع للعدو!».

يدها تشدُّ على الورقة، وعيناها مُسمّرتان على الخبر العاجل.

وسوسات أبي ذر

الإجازة القسرية أثقل على النفس من دوام مبكر بعد سهرة حافلة، وأثقل منها أن تضطر للبقاء في المنزل رهن إقامة جبرية، حفاظاً على حياتك.

وكيف بمن شغف بعمله وأحبه؟ ذلك أتعب له وأمضُّ. كانت الإجازة المفتوحة التي فُرِضَت على العاملين في المعمل الفيزيائي المشرف على المفاعل السلمي بأمرٍ من وزير التصنيع والحربية تساوي عند أبي ذر السجن الانفرادي.

يقولون: إنّ أبا العلاء لُقِّبَ برهين المحبسين، ولكنّه على الأقل كان يلتقي بالعلماء والطلاب، ويراسل الأمراء والملوك، أما أنا فرهين

محابس: فالأول بيتي، والثاني المجمع السكني، والثالث معملي، والرابع محروم من السفر، والخامس محروم من الكلام إلاّ في الرياضة ومشاكسة زوجتي، والسادس.. والسابع.. إلخ.

نعم، أنا رهين المحابس، قال ذلك، وأخذ جلباباً مفتوحاً وضعه فوق ملابس النوم، ثم انتقل إلى الشرفة.

ألقى بثقله وثقل همومه فوق كرسي من الخيزران، ونظر في الأفق نظرة تريد أن تخترقه، فبدا عليه شبح ابتسامة، وهو يتذكر أن عمر الخيام حاول قبله هذا الاختراق وفشل، ارتدّ بصره حسيراً، لعجزه عن تبيُّن ماهيّة هذه الذرّات المتلألئة التي تداعب عينيه.

أهي كما يقولون: زغللة؟ أم سراب؟ أم أن الضعف بدأ يتحيّفُ بصره!؟

مسح نظارته، وفرك عينيه، ثم قام وغيّر مقعده من على الشرفة المطلّة على الفضاءِ الواسع غرباً، إلى الشرق المطل على حديقة البلدية.

الماء والخضراء – كما يقولون – دواء للعين، وجلاء للهموم والفكر، تملّى من شجر السرو الصاعد إلى الأعلى، وأخذ يتنقّل ببصره من عرائش العنب، إلى أحواض الزهور المتفتحة، أحسّ براحةٍ كبيرة وهو يرى بوضوح حركة الماء المنساب من أنبوب السقي، أو من تلك الرشاشات التي ينتشر رذاذها في الفضاء لامعاً، وتزيده أشعة الشمس الساقطة عليه بريقاً.

أمّـا ذلك المـزارع الذي يلمُّ ثيابه، وهو ينتقل بأنبوب السـقاية من شـجرة إلى شـجرة، فقد لفت نظره فـي هدوئه واطمئنانـه، وحركاته وتنقلاته غير عابئ بما تنقله الفضـائيات من أخبار، فيد تمسك أنبوب الماء، والأخرى تنساب بين الفروع لتلتقط بعض الثمار الناضجة.

إني – على البعد – أرى فكّيه وهما يطبقان بهدوء على حبّة عِنّاب، أو خصلة عنب، أو تفاحة لذيذة من السكري الصغير.

يا لعالمهِ الوادع الهانئ!!

لِـمَ لمْ أتوجّه لدراسـة الزراعـة؟ لكنت تخرجت مهندسـاً زراعياً، ولكنـت الآن أقبـع في ظلِّ شـجرة، أو أتنقـل طليقاً كالطيـر، وأنا أوجّه عامـل الرش، وعمّـال الحراثة والقطف، أو كنـت أتعامل مع الحيوانات الأليفة، أتابع الخراف والعجول، وأتناول فطوراً طبيعياً طازجاً.

لقد صدق من قال:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـوّت إنســـــــانٌ فـكـدتُ أطيـرُ

آخ.. آخ..!! مـا الـذي وجّهنـي إلى الفيزيـاء؟ لم أكن أميـلُ إليها كثيـراً، كان درسُ الأحياءِ يسـتهويني، وكثيراً ما حثّنـي والدي على دراسـة الطب، كان المسكين يُعاني من بصـره، ويتمنى أن يصيرَ ابنُه طبيـب عيـون ليعالجه مجّاناً، فقـد كان لا يملك المـال الكافي لمتابعة علاجه.

آه..! إنّـه أسـتاذ الفيزياء ذاك المسـحوب من لسـانه، هو الذي وجّهني وشـجعني، كان دائماً يحمّسـني قائلاً: يا غبار.. يا ابن أبي ذر! كلٌّ له من اسـمه نصـيب، كـم أتمنى لو تعـود الأيام إلى الـوراء لأكمل تخصُّصـي، أمّـا أنـت فالفرصـة سـانحة أمامـك، وتفوقك هـو جواز سفرك، إن عالماً فيزيائياً – يا غبار – يساوي في نظري آلاف الأطباء والمهندسين المتسكعين، إنّ أمتنا بأمس الحاجة إليه، يجب على أمتنا أن تملك الذرة حتى تستطيع مواجهة إسرائيل، ومن هم وراء إسرائيل، لا يكبح الذرّة إلاّ الذرة!.

كانت خطبه ودروسـه عن أمتنا وتراثنا العلمي تفوق تدريسه مادة الفيزياء لنا.

لا أدري كيـف اقتنعت بكلامه! أهُوَ شـيءٌ ذاتـي أردت تحقيقه؟ أم هو إحسـاس بحاجة الأمة كما قال الأسـتاذ؟ أو كما قال يونج بالشـعور الجمعي؟ أَمْ أَنّ الحِسّان اجتمعا في داخلي، وسيّراني لدراسة هذا العلم؟ وأنا في حِلٍّ منه، وبعد تردُّدِ لجنة البعثات التي وافقت على مضض.

كانت هذه الوسوسـات تتـوارد على خاطر الدكتـور (غبار بن أبي ذر) عندما قطعت الخادمة عليه وسوساته بفنجان القهوة.

ما أن وضـعته أمامه حتى امتدت يده، وأخذ الفنجان ورشف رشفة طويلة، لكنّه تنبّه فجأة، ما الذي يجعلني أحتسي هذه القهوة؟ ألا يمكن أن تكون مسـمومة؟ ربّما! إنّهم وصـلوا إلى (المشـد) فـي باريس على الرغـم من الحراسـة المشـدّدة، ومنهم من وُجد مخنوقاً في فراشـه،

وبعضهم قتل عن طريق رسالة ملغومة، أو هدية مسمومة، أو بأيِّ أسلوب شيطاني يخطر على بالهم.

أحسّ بشيءٍ من المغص، وضع يده على بطنه، ماذا؟ أتكون القهوة هي السبب؟ اشتد المغص قليلاً، وعلامات من الفزع الهادئ تظهر في عينيه، وهو يراقب حركات الخادمة، التي لا يمنع أن تكون عميلة (للسّي آي إيه) أو الموساد! ترك قهوته وانتقل إلى دورة المياه، وهناك تذكّر آخر يوم غادر فيه المعمل، كان يوماً مرهقاً عصيباً، فعمليات الحفظ والتغليف، والإغلاق المحكم التي أشرف عليها بحكم الإجازة المفتوحة، أتعبته جسدياً، كما أنّ السريّة المتبعة في انتقاله من منزله إلى المعمل وبالعكس، تثير عصبيته! فخروجه من المعمل يضطره إلى الانتقال في ممرات عديدة منها الضيّق، والمتسع، واللولبي، والدائري. أما الأبواب الصمّاء التي ينفتح بعضها بالأرقام، وبعضها بالبطاقات أو المفاتيح أو الكهرباء تشعره بأوكار المخابرات.

حتى في طريق عودته إلى البيت كان عليه أن ينتقل مسافة بضعة كيلو مترات عن طريق حافلة مع مجموعة من الزملاء توصلهم إلى مركز البحوث الإستراتيجية عبر شارع محاط بالأسلاك الشائكة، ومن بعده توصلهم سيارات عبر قبو خاص إلى مجمع سياراتهم المرتفع حوله سور عال.

زال المغص، أحسّ بشيء من الراحة، ممّا جعله يتأكّد من أنّ القهوة لا تخفي له شيئاً. خرج من دورة المياه، وعبر إلى الشرفة حيث كان، استوقفته في المجلس أخبار إحدى الفضائيات..

المذيع يعلن: أن المتحدث بلسان وكالة الطاقة الذريّة الأمريكية قد صرّح بأن الخطر لا يكمن في إمكانية العرب من صنع الأسلحة الذرية، وإنما يكمن في وجود علماء الذرة.

شيءٌ ما شوّش على أبي ذر التقاط الخبر، ماذا يقول؟ الخطر في وجود أبي ذر؟!

يا للطّامة الكبرى..!! وكالة الطاقة تعرفني! وتعرف أنني خطر عليها؟

من أين عرَفت كنيتي التي لا يعرفها إلّا أهل قريتي؟ حتى في سجلي الجامعي أو في جواز سفري لم أدرجها، إلّا بعد عودتي.

لابُدّ أنّ لهم عيوناً تتابعني وتعرف الدّقيق من أمري، لعلهم الآن يراقبونني وأنا جالس على الشرفة، ولا أستبعد أنهم علموا بالمغص الذي أصابني.

ماذا عليّ أن أفعل، عاد إلى مقعده، وإلى وسوساته! لا بُدّ من أن أذهب لتغيير اسم العائلة الذي أصرّ والدي على تكريمي بإضافته إلى جواز سفري بعد عودتي دكتوراً.

يا ولدي، قال لي وهو يتفحص أوراق تجديد الجواز: اسم العائلة شرف، ولا بد أن يضاف، والناس في هذه الأيام يشترون الكنى والألقاب، ومن لا عزوة له لا قيمة له.

آه يا أبي سامحك الله! ولكن ماذا أصنع؟ لا بدّ أيضاً من تغيير

مسـمّى الوظيفة، كثير من الناس يُغيّـرون مهنهم وحرفهم احتيالاً على المعاش، ونحن علينا أن نحتال حتى نبقى أحياء.

رنين جرس الباب المتواصـل، أشعل شـرارة الاستعداد في البيت، فالحذر والترقب، وفتح الدائرة التلفازية كل ذلك للتعرُّف على القادم.

بعد التأكد من هوية القادم، انفرجت الصـدور برؤية هُباب بن أبي ذر، الذي ما أن انفرجت درفتا الباب حتى دخل منطلقاً تغمره السعادة، وهـو يزفُّ إلى أبيه نبأ اختيار البعثة له لدراسـة الذرة، لأنهم كما قالوا له: الأمة بأمس الحاجة إلى علماء الذرة!.

المذهب الزعنوفي

بحكم علاقة النسب التي تربطه بأحد محرري الصفحات الثقافية – التي كان يرى فيها جواز مرور لاصطحابه إلى الأمسيات والندوات الأدبية – صار أيضاً يعتقد أن هذا النسب والمصاهرة قد يمتدان إلى الأدب وأهله.

وكم كان يتحرق شوقاً لأن ينعت بالشاعر أو الكاتب! فهم – في وهمه – من الشهرة والدرجة بمكان. والشهرة عنده هوس يركب الصعب من أجلها، ولكن العقبة الكأداء التي تقف في طريقه عدم معرفته البتة في كيفية توليف القصائد والقصص، وكم كان يسأل ويحاول، ولكن محاولاته دائما تبوء بالفشل!.

داوم على حضور إحدى الندوات، فكان يستمع إلى الشعر والقصص والبحوث، وينصت للحوار الدائر، وهو في صمته كالأطرش في الزفة.

كان النقاش يدور ويدور، وعندما يصل إليه يصطدم في جدار أخرس، فيجف ريقه، ويتحجر لسانه، ولا ينقذه إلاّ التقاط طرف الحديث من متكلم آخر.

وفي إحدى الجلسات التي خصصت لأحد الشعراء الكبار، وبينما كان الشاعر يلقي شعره، أخذته حُمّى الجرأة، وفكّر في نقد الشاعر بعد انتهائه، لن يترك الفرصة لأحد، سيأخذ زمام المبادرة، قبل أن يتفوه أرباب النقد بكلمة واحدة، يكون هو قد سيطر على الموقف، وإذا كان الجميع يقول، فلم لا يقول!؟ بل يجب عليه أن يقول، والنقد كما سمع، مدح أو قدح، ولا يحتاج إلى علم غزير، فيسيره يكفي، وحاجته تكمن في لسانه السليط، ولِمَ لا يذم ويقدح؟ فيُشْهَرُ ويعرف، على قاعدة: خالف تعرف!

بدأت مخيلته تفسح له طريق الشهرة، فرأى أنه يقوم من مكانه، ويجلس في المكان المخصص للمتكلم، جلس، عدّل من جلسته، تنحنح، مَصّ شفتيه، غاب في تأملاته وخواطره، لم يعد يعي أو يسمع ما حوله، نظر في وجوه البعض فرأى علامات الترحيب والتشجيع، فبدأ ينتفخ وينتفخ، حتى صار يشعر بأنه أضخم من جميع الموجودين، نظر إليهم من عل، فينطلق لسانه ببضع كلمات، وبضع همهمات، صحا على إثرها، وهو لا يدري ما الذي حدث؟

لو سألته عما قال؟ لما استطاع أن يجيبك، لقد قال ما قال دون أن يدري كيف!؟ وماذا!؟

ومما زاد في حيرته أنه وجد نفسه مكانه، ووجد الكثير من العيون ترمقه بحدة، الامتعاض يظهر على الوجوه، الشفاه المزمومة تعلن غضبها واحتقارها، تململ في جلسته، فرك وجهه بيده، استراح لهذه الحركة التي غطت عينيه، فأنقذته قليلاً من هذا الجلد بسياط العيون، تمنى لو يطيل حركته تلك، امتدت يده إلى كوب الماء أمامه، عَبّهُ، سالت المياه على ذقنه وثيابه، انشغل بها، لم يعد يعي ما يجري حوله، طالت كثيرا كما لم تطل من قبل، لحظات كأنها أعوام، وما أن تم الإعلان عن نهاية الندوة حتى خرج يجر رجليه، وكأنه يظهر من تحت ركام، وما أن التقط أنفاسه، حتى أحَسّ بأنفاس خلف ظهره، وإذا بصوت نشاز يُسِرُّ في أُذنه: كنت كبيرًا وجريئًا، إن جرأتك هذه لم تتعودها الندوة، وبخاصة في وجوه هؤلاء الذين يظنون أنهم كبار، ولا يتركون مكانا لغيرهم.

التفت خلفه وإذا به يفاجأ، من!؟ إنه الذي حاول مرتين إلقاء بعض شعره، فسمح له في الأُولى بين سخرية الساخرين، ومنع في الثانية!. مضى وهو يفكر، ويحدث نفسه، لِمَ لا أُكَوّنُ أنا وهذا الشاعر وقريبي الصحفي اتجاهًا أدبيًا؟ فنقف أمام هذه الوجوه الكالحة؟ نعم، هذا الشاعر يقول، وأنا أنقد، والصحفي ينشر! لا..لا، لا ينفع الاتجاه، لابد من بناء مدرسة نقدية تستمر أجيالاً، أظنُّ أنّ اسم المذهب النقدي أوقع في النفس من أيّ شيء آخر، ولكن لِمَ أُكَوّنُهُ على أعْمِدة ثلاثة؟

فقد يمضـون بالشـهرة دوني، وأبقى أنا في الظل!؟ لا، فالفكرة فكرتي، وأنا الأولى بذلك، أُريد أن يتكلم الناس عن مذهبي، مذهبي لوحدي!.

ولكـن.. مـاذا أُسـميه؟ وأخذته الحيـرة في اختيار الاسـم، وظل في سـيره مشـغولا باسـم مذهبه الجديد، وإذا به وجها لوجه أمام دار للكتب.

حسـنا هذه فرصة ثمينة، أشـتري بعض كتب النقد وأُطالعها، ومن خلالها أختار اسما لمذهبي.

تأبّـط بعض الكتب، وخـرج عائدا إلى بيته، وصـل، ألقـى بالكتب النقدية على السرير، ريثما يبدل ملابسه، استلقى، وتناول واحدا منها، قرأ بضـع صفحات منه، تثاءب، غزا النعاس جفونه، ألقى بالكتاب فوق رأسـه، بدأت الأشـياء في الغرفة تتلاشـى شـيئا فشـيئا، وأجفانه في عناقها توحي بالاستسلام، بسـمة فوق الوجه المثخن بالسبات، شفتاه تتمتمان:

هـذه بطاقـة دعوة لي من رابطـة الأدباء، لأعلق علـى بعض الأعمال، تتحرك يداه وكأنه يفتحها، يقرأ: إلى رائد المذهب الزعنوفي مع التحية.

يالـه من اسـم رائـع!.. نعم، هـذا ما كنـت أبحث عنـه، المذهب الزعنوفي في النقد صرخة جديدة لا يملك الأدباء والنقاد أمامها سوى الاستسلام والتسـليم لي بالقيادة والريادة، سأحطم بهذا المذهب كل المذاهب السابقة، ولن أسمح للاحقة بالتسلق على زعنوفتي، الزعنوفة هي التي تحرك السمكة، وأنا الذي أُحرِّك الأدب والنقد!.

ولكني أخشى أن يفهموا أنّني لست زعنوفة سمكية، وإنما زعنوفة ضأنية، وهذا ما يجعلني أتردّدُ قليلا في هذه التسمية، لأن الزعنوفة الضأنية زائدة سوداء خلف الظلف لا تقدم ولا تُؤَخّر.

لا، لا تَهُمُّني آراؤُهم، فأنا الذي أُنَظّرُ، كما أنه لابُدّ في اسم المذهب النقدي الجديد من أنْ يحتمل التأويلات الكثيرة، إلى جانب احتمال التعبير عن مضامين مختلفة ومتعددة بتعدد الأفهام والأذواق، وإلّا فكيف سينشغل الناس بي وبمذهبي؟

انقطع قليلا عن المتابعة، علا شخيره، رأى نفسه يلبي الدعوة، ها هو ذا يدخل القاعة، وصوت شخيره يعلو ويعلو، صدره يرتفع وينخفض، أصوات تطنُّ في أُذنيه، وكأنها أصوات الجمهور الذي يشتد في التصفيق ترحيبا به! رأى نفسه يتحرك، يتقدم من المنصة، استمع إلى بعض مقدمي الأعمال الأدبية، لم يطق ما سمعه، خطف السماعة، أشداقه تتراقص، والزبد يتناثر، الجمهور يحتج، أصوات تعلو وتنخفض، احتجاجات صاخبة، عيون مليئة بالغضب، قبضات مهددة متوعدة، ألسن تصرخ في وجهه:

خسأ الزعانف، خسأ الزعانف، خسأ الزعانف!.

تراجع الناقد الزعنوفي عن المنصة، ظل يتراجع، تعثر فسقط، أخذت نعال الجمهور توسعه ضربا، وأرجلهم ركلا، تلوّى، وتألّم، حاول الفرار فقام هاربا فزعا، فاصطدم بالجدار!.

صـحا على أثَرِ الصدمة، فتح عينيه جيدا، تلفّتَ حولَه، ماذا أرى!؟ يا إلهي، لا زلت في غرفتي، كُلُّ ذلك أوهام وأحلام، كل ما في الأمر أنّي سقطت عن سريري!.

تحسّـس نفسه، حمد الله - وهو يعود ثانية إلى فراشه- أنه لم يكن في القاعة، أحسّ براحة عظيمة وهو ينعي إلى نفسه بيان وفاة المذهب الزعنوفي!.

الجـاهـز

الخـوف المتربّع في قلب سـعيد عبـد الباقي المحاسـب بالخبرة، الذي لم يُكمل تعليمه الجامعي كان يحاصـره، ويشـدّ وثاقه، ويضـغط علـى عنقه، علـى الرغم من أنه لـم يتعرّض مرة واحـدة للعقاب، هذا المجهول السبب جعله يسلك كلّ وسيلة إيجابية للإفلات من آثاره.

ومع ذلك فإن كُلّ سـلطةٍ تُرهبه، فهـو يطيع والده طاعة عمياء، لأنّ نبرته قوية، وأوامره حازمة، وهو يحفظ دروس الأستاذ عِقاب عن ظهر قلب، لخشيته من عصاه، ومن شاربيه الغليظين المعقوفين.

أما سـلوكه، وعدم مشـاركته في المظاهرات، فلما تختزنه ذاكرته من قسوة رجال الشرطة.

وحرصه على أن يكون زوجاً مثالياً ينبع من تهديد زوجته بالانفصال عنه، لو فصل من عمله، وهذا ما يجعله يشعر بالرعب الحقيقي، فزواجه منها بالنسبة له كان من رابع المستحيلات، فهل ذلك راجع إلى جمالها. أم إلى إحساسه بدمامته!؟

انضم إلى موظفي الحكومة الصغار مجبراً، أمضى سنوات عديدة وهو يراوح مكانه في الوظيفة الحكومية، والمرتب اليسير الذي يحصل عليه، لم يكن كافياً لتغطية المصروفات.

تحت ضغط زوجته، والطفرة الاقتصادية، وازدياد الاحتياجات استقال من وظيفته، ليعمل موظفاً للحساب في شركة تجارية.

مضى عليه أكثر من خمس سنوات في هذه الشركة وهو يعمل بجد، ولم يتغيّب يوماً، ولم تمسك عليه إدارة المحاسبة خطأً واحداً.

أعماله منضبطة، وحساباته متقنة، وكل ما يُطلبُ منه يجهز فوراً، وكان زملاؤه يتندرون عليه حتى إن أحدهم قال مازحاً: لو أنه كان بين جن سليمان عندما طلب عرش بلقيس لسبق الذي عنده علم من الكتاب.

ولهذا أطلقوا عليه لقب (الجاهز!)

كان سروره بهذا اللقب، لا يعادله سوى ذلك الخوف الخفي الذي يضمره من زيارات المدير المفاجئة، أو لأولئك السعاة الذين يأتون أحياناً لاستدعاء الموظفين إلى مكتب المدير. فكلما رأى واحداً منهم

مقبلاً على مكتبه انغمس أكثر في عمله، ومِنْ طَرْفٍ خفي يأخذ بمراقبة زملائه والساعي القادم، وكلّما اقترب وقع أقدام الساعي ازدادت ضربات قلبه حدّةً وسرعة، حتى ليخشى أن يسمعها زملاؤه، فيفتضح أمره.

وهو الجاهز المعتد بقدراته الحسابية، والمدّعي بأنه يعمل لإرضاء ضميره لا خوفاً من أحد.

ويتمادى في هذا الادّعاء، ويقول: إنّ شركات كبرى عرضت عليه العمل مديرا لحساباتها، ولكنه يرفض من باب رد الجميل، وقرب المكان، والتعوّد على الزملاء، والفلوس ليست كل شيء.

كان هذا الادّعاء يخفّف إلى حَدٍّ ما من حدّة الخوف التي يستشعرها على وظيفته.

وإذا كان ادّعاؤه على الأشهاد، فإنّه يعترف بينه وبين نفسه بأن شهادته المتدنية أصبحت بلا قيمة أمام تلك الشهادات الجامعية، والتخصصات العليا.

وحرصه على مرتبه العالي الذي يفوق خمسة أضعاف مرتب الحكومة، ولأجله خاطر بترك وظيفته؛ يجعله يعض على عمله بالنواجذ، ويمرُّ على خاطره دعوةُ أحدِ القادة لشعبه للثبات بعد هزيمة جيشه (بأسنانكم وأظافركم!) يضحك بصوت مرتفع، وهو يقول: ماذا تنفع الأسنان والأظافر في وجه الصواريخ وقنابل النابالم الحارقة؟

ثم يصمت، وكأنه ارتكب فعلاً فاضحاً، ومِن فوق نظارته يُطلُّ برفع حاجبيه، فلعلّ أحداً من زملاء المكتب لاحظه وهو يخرج عن وقاره المعهود، وتقليده الجاد.

أخذت ضربات قلبه تتسارع وهو يرقبهم واحداً واحداً، انشرح صدره عندما رآهم لاهين عنه، عاد إليه بعض اطمئنانه، لكنّه ظلّ موسوساً من أنّ أحداً رآه أو سمعه فينقل ذلك للمدير.

دارى اضطرابه، وانغمس أكثر في مراجعة وتدقيق ما يقبع أمامه من فواتير وسندات وسجلات!.

أحسّ بآلام مغص، حاول أن يتثبت، آثار رجفة خفيفة ألمت بأطرافه، أخذت قطرات العرق تتنزّى من جبينه، ترك ما بيده، وقام مسرعاً، ودخل الحمّام، خرج بعد أن غسل وجهه، وأحسّ بشيء من الانتشاء، عاد وهو يرسم بسمة الثقة على محياه.

ماذا؟ من هذا؟ من ذاك الذي يقف عند مكتبي؟

غامت عيونه، رقصت ركبتاه عندما تأكدّ أَنّ دعّاساً الساعي هو الذي ينتصب أمام مكتبه بشحمه ولحمه!.

كانت الأمتار الخمسة التي تفصله عنه تمثّل زمانَ روايةٍ عميقة الجذور، ممتدة الفصول، فلو أنّك سجّلت كلّ خاطرة ورعشة، وكل صورة ونبضة لخرجت بملف ضخم كهذه الملفات التي تقبع على مكتبه.

لم يعلم كم من الوقت استغرقت هذه الأمتار الخمسة، لملم أطراف

شـجاعته، وبلع ريقه وهو يحاول الجلوس دون النظر إلى الساعي، الذي بادره بشيء من الجفاف: المدير يريدك لأمر هام!.

- المدير!؟ من!؟ أنا!؟ لعلّه غيري، ما الأمر الهام!؟

لم يعطه الفرصة: الآن يريدك.

حـاول الوقـوف، ولكـنّ رجليه أبتا عليـه، فأجبرهما علـى الوقوف معقداً بيديه على سـطح المكتب، ثمّ بدت خطواته الذاهلة توقع نغمات تعليقات زملائه الساخرة:

- يا حظ من يقابل المدير!

- وجه المدير ولا وجه السعد!.

- أكيد علاوة تقدير، أو ترقية لمدير!.

- ماء من تحت تبن!.

- تحت السواهي دواهي!.

كانت هذه التعليقات تصـفعه وتدفعه.. خلّف الباب وراءه وهو يلهث خلف الساعي.

ابتلعه الممرّ الطويل، وقف أمام اللوحة التي تشير إلى مكتب المدير.

انسـرب مع الداخلين، أمره السـكرتير بالانتظار حتى يحين دوره، كانت الثواني ساعات، والدقائق أيّاما.

ما الأمر الهام الذي يريدني المدير لأجله؟

هل أمسك عليّ خطأً؟ لا.. لا، كل المدققين الحسابيين أشادوا بدقتي.

هل يريد نقلي كما يشاع إلى أحد الفروع؟ تذكّر فجأة أنه يُقدِّم خدماته المحاسبية لأحد المحلات التجارية في حارته بعد انتهاء دوامه، فهل وشى أحد بي؟ ماذا سأقول له!؟ سأعترف، لا.. لا، ليس هناك دليل، قد يفصلني إذا اعترفت، اقشعرّ بدنه لهذه الفكرة، فزوجته قد تنفصل عنه لو حصل ذلك.

لا أظنه يعلم بهذا الأمر، ربّما يريد مني التحضير للميزانية الجديدة.

الميزانية...!؟ بعد أربعة أشهر، وعادةً يرسل لنا تعميماً، أو لعله يريد استبدال الحاسوب بالسجلات؟

الخوف كل الخوف من هؤلاء الخريجين الذين لا يُحصى عددهم، والذين تقدّموا لشغل وظيفة محاسب، يتنهد وهو يرى حملة الماجستير والدكتوراه، أحسّ بالمغص مرّة أخرى، ولكن...!!

لِمَ كُلُّ هذا التشاؤم؟ ألا يمكن أن يكون الأمر كما قال زملاؤه، ترقية أو علاوة!؟ صحيح.. رئاسة القسم شاغرة منذ استقالة الرئيس وانتقاله للعمل بالخليج، وأنا أحق بها للأقدمية والمواظبة وتقارير الامتياز.

أو كما قيل: إن نائب المدير سيحال على التقاعد، وليس من يستطيع

شـغل هذه الوظيفة غيري. ولكن الشـهادة الجامعية.. أخ.. أخ! لو كنت أكملت دراستي..!

دقات قلبه قفزت من بين ضـلوعه عندما فتـح باب مكتب المدير، أومأ إليه السكرتير بالدخول.

لو أنّ قيداً يُثقل رجليه، أو جبلاً يجثم فوق كتفيه لكان أهون عليه.

مضـى يجرُّ خطـاه، دخل.. ومن حسـن حظه كان انشـغال المدير بمكالمة هاتفية قد أعطاه الفرصـة كي يغيِّـر لونه الممتقع، ويهدِّئ من روعه، ويطرِّي جفاف ريقه.

ما أن وضع المدير السماعة حتى نظر إليه وقال: ما الذي أتى بك؟ أنا طلبت سعيد عبد المقصود لا سعيد عبد الباقي!.

كانت هذه العبارة بمثابة الترقية إلى نائب مدير.

موت شجرة الكرز

هل هـي حقاً تأخـذ من الشـفق لون حبّاتهـا؟ ذلك اللـون القرمزي المشرب بحمرة هادئة، والمفصول بخطٍ هلالي يوحي بقمر ابن ليلتين.

طيف ابتسامة يُغَشّي ملامحه، وهو يتذكر قول الأخطل الصغير:

أنا لا أصدّق أن هذا القرمز المشقوق فمْ

بـل وردة مبتلة حمـراء من لحـم ودمْ

إنّ اللّمى.. هو اللّمى، والثغر.. هو الثغر.

إنّها منجم ياقوت، يتدفق عبر كُراتٍ تتعانق فوق رأسه، وتلمع في ضوء

الشمس، الذي يسرق من بين لحظات تمايل أغصانها بفعل حركة النسيم لحظةَ انتشاءٍ بالتجوال في أحشائها، ويغتصب قبلةً بالوقوع على خدِّ طفلته، التي كثيراً ما تأخذ موقع أبيها المفضّل، وتفعلُ بعض حركاته.

لم تكن شجرة الكرز تمثل أيّ شجرةٍ كمئات ملايين وبلايين الأشجار، التي تقبع على سطح الكرة.

وعلى الرغم من أنّ حديقة بيته تزدان بأنواع كثيرةٍ من الأشجار المثمرة والمزهرة، إلاّ أنّها مركز الدائرة، وقطب الرحى، وبؤرة الاهتمام.

هل تغار امرأة من شجرة؟ هكذا كان يشعر، عندما تلومه زوجته على عنايته الزائدة بها، وعلى جلوسه الدائم تحتها، فمقعده الأثير يتطاول عمره كما تتطاول أغصانها، ويتضخّمُ جذعها.

أما معرفته بكلِّ تفاصيلها، ومسامّ لحائها فتكاد تفوق معرفته بملامح أهله، وجزيئات بيته، كما تقول زوجته: إنه يُعَوِّذها قبل خروجه وعند منامه.

هو يرى أنّها أُنسُهُ وحضنه الدافئ، الذي شهد ولادات إبداعاته، وشاركه فيها.

كُلُّ برعم، وكُلُّ وريقةٍ، بل كُلُّ انحناءةٍ وانثناءةٍ، وتجعيدة، قد عايشت تجربته في الحياة والعلم والأدب والوظيفة، لقد انتشقت كتبه وإبداعاتُه رائحتها، وتلوّنت بألوانها، وتشرّبت دم حبيبات كرزها.

كانت كالزوجة المحبة، تأخذ بيده، وتتناول معطفه، وتعلّقهُ على كتفيها بانتظار أوامره، وكثيراً ما تأبّطت حقيبته فوق جذعها، أو حرّكت بنسيم أغصانها أوراق دفاتره، وكأنّها تُعينُه على تقليبها.

وإذا ما أحسّ بإرهاق العمل، أو لذعات الصيف الحارة مدت يدي أغصانها لتمسح حبيبات العرق التي يتفصّدُ بها جبينه، وتبعث في جسده نشوة لا يدري مصدرها، أَهُوَ طيب مذاق ثمارها؟ أم ظلُّها الرفيف المنعش؟ أم ذلك التشكيل المتمم لأغصانها؟ أم تلك الرؤية الداخلية التي ترى في انتصابها أمام بوّابة المنزل حارساً أميناً؟ أم أنها كما يدّعي هي وَحْيُهُ؟ أم لكلِّ ذلك مجموعاً!؟

لم يكن هازلاً عندما كان يقول: إنها تستحق نصف مكافآته التي يحصل عليها من نشر بعض نتاجه الأدبي، ومن حقها عليه أن يصرفَ وُكدَهُ وجهدَه، واهتمامه وعنايته بها.

فهو الذي يتولى تقليمها بنفسه، ويرشها بيده، ويتابع سقيها وتسميدها، إنّه يأخذها بيديه كعاشق ولهان، عندما يتناول بطرف مقصّ الأشجار عوداً جافاً من هنا، أو عوداً من هناك،وكأنّه يُقلّم أظافر طفلته الصغيرة، إنّه يخشى أشدّ الخشية من أن يُخطئ مقصه، فيزيد عن الحدّ المطلوب بقصّ غصنٍ رطيب.

وإذا ما داعبه غصن بأن تشبّث به، أو أَخَذَ قميصه، أو عاكسه باصطياد عضوٍ من أعضائه، فإنّه يأخذه بين يديه بحنو زائد، ويعيده إلى مكانه.

لـم يخرج يوماً دون أن يمرّ بها، ويطيـل النظر إليها، وما دخل قط قبل أن يلمّ بها، وكأنّه يودعها أو يسلِّم عليها.

جلسـة العصـر تأخذ العقل وفصـلَ الربيع بكامله، وتضـيف إليها جلسـة الليل الهادئة صـيفاً، ولم يكن يفارقها شـتاءً، فأوقات الضـحى مثالية وخرافية كما يزعم.

كان انعقاد مؤتمر الرواية، ودعوته للمشاركة قد شغله بعض الشيء عـن التدقيق في ملامـح أليفته، إلاّ أنّه – وقبل سـفره – لاحظ شـيئاً غريباً، فبعض فقاعات الصمغ بدأت تظهر في بعض أنحاءِ جذعها.

لـم تشـغله روايته (عنقـود الكرز) التي صـحّح تجربتهـا الأخيرة لتقديمها للمؤتمر عن بعض ما ساوره من قلق.

لذا فإنه – وعلى الرغم من موعد السفر عصراً – قد أجرى بعض الاتصـالات مع من يعـرف اهتماماتهم بالزراعة، طمأنـوه بأن الأمر لا يعدو تنفيساً مثل تعرّق الإنسان والحيوان، والشجر يتعرّق كذلك، آخرون أرجعوا ذلك إلى زيادة الرطوبة، وتمّ نصحه بعدم سقيها مدة للتأكد.

اطمأنّ إلى هذه التحليلات، فأوصـى زوجته بأن لا تدع ماء الشطف يصل إليها ريثما يعود.

انقضـت أيام المؤتمر، وكم كان سـعيداً بالثناء الـذي نالته روايته (عنقـود الكـرز) لملامحهـا الفنيـة الخصـبة، وإيحاءاتها المشـعة،

ورمزيتها الشفيفة عن اكتمال العنقود باكتمال حبّاته جمالاً وفنّاً وروعة وقيمة وقوة، وكم تخسر اللوحة بتشوّه حبّةٍ أو انفراطها.

لكنّ هذه السعادة كان يشقها خطٌّ من الهم، كذلك الخط الذي يفصل حبة الكرز إلى نصفين مع فارق الألم.

تخطّى العائدين وهو يحثُّ الخطى للوصول والاطمئنان على شجرته.

عبارات ترحيب مستقبليه واستفساراتهم لم يقابلها سوى إجابات سريعة ومقتضبة، تبعها بالانتقال إلى الحديقة، وما أن وقعت عيناه عليها، حتى هاله المنظر، إنّه منظر تلك الدموع السخية المنهالة التي جلّلت شجرة الكرز، فلم يبق في جسدها قدر إصبعٍ إلاّ وتفجّر منه الصمغ.

أتحزن الشجرة على فراق أليفها وصاحبها؟ كثيراً ما قرأ أخباراً وحكايات عن ذلك، ولكنّه كان يعدُّ ذلك من الترّهات، ومع ذلك فها هو قد رجع، وعليها أن تفرح برجوعه، وتتوقف عن البكاء.

مضى اليوم الأول والثاني والأمر يسير من سيّئ إلى أسوأ، أتكون دموع الفرح؟

لا، لا بُدّ من استشارة مهندسٍ زراعي، وكان العلاج الموصوف مبيداً للرش، وتقويتها بإضافة سماد يحتوي على الحديد، كما نُصِح بغسل جذعها بالماء والصابون.

الأيّـام تمرُّ بطيئة ثقيلة، ومرض شـجرة الكرز يأخذ كُلّ وقته، حتى إنّه أخذ إجازةً اضطرارية.

الصـحف اليومية التي تقبع على الطاولة الخشبية التي تحمل أنباء الحروب والـزلازل، والفيضـانات والحرائق، والقتـل والموت..لم تكن تثيره كثيراً بمقدار ما يثيره خبر عن أمراض الأشجار وأسبابها وكيفية علاجهـا، مع أنه بدأ يعطف على قراءة تلك الأخبار، ويتابع حتى أخبار النعي والشكر على التعازي.

الأمر يزداد سوءاً، بدأت بعض أعضائها تتيبّس، ثمار الكرز أخذت تضمر.

أُسـقط في يده عندما ذهب إلى الاستشـاري في أمراض الأشجار بدائرة الزراعة، وأخبره أنّ شجرته في النـزع الأخير، وعليه أن يستسلم لقضاءِ الله، وحالتها ميؤوس منها، ولا ينفع فيها علاج.

كان الحـوار الدائـر بيـن الاستشـاري وبعض زوّاره يتمحور حول الاستغراب من كثرة الأمراض التي بدأت تصيب الأشجار!

علّق أحدهم: هذه الأمراض لم نعرفها إلّا بعد اتفاقية السلام.

وما علاقة اتفاقية السلام بأمراض الأشجار؟

أكّد أنّ إسـرائيل عن طريق تسريب بعض المبيدات المحرّمة دولياً تريد محاربتنا اقتصادياً.

تدخّل في الحديث ثان، وقال: لا تستبعدوا هذا الأمر، فالذي يستعمل اليورانيوم المنضّد ضد الأطفال، ويضيف لماء الشرب مواد تصيب بالعقم، وما اتفاقية المياه وتلويثها وإرسالها لنا إلاّ دليل.

ردّ المستشار: إذا قلت لكم.. إن إفساد إسرائيل قد يكون وراء جنون البقر، والحمى القلاعية، قد لا تصدّقون!.

تدخل أحد الجالسين الذي كان مشغولاً بقراءة مطوية عن أنسب الأوقات للزراعة قائلاً: سمعتم عن ملكات النحل المريضة التي سرّبتها إسرائيل إلى مصر!؟

هزّوا رؤوسهم، وهمهم أحدهم: إنّهم لا يتركون شيئاً حتى الذكريات الجميلة يقتلونها.

انسحب من بينهم، ومضى ليقوم بإجراءات الدفن، ومع أول ضربة معول، انتصبت مكانها قصيدته الرثائية (إسرائيل تقتل الأشجار) ومن خلال زجاج النافذة كان التلفاز ينقل أخبار الأرض المحتلة، وجرّافات العدو الصهيوني تهدم البيوت وتقتلع الأشجار من جذورها.

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - ديوان «عقد الروح»، نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.

٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينة قدور.

٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.

٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة من الأدب الأردي - ترجمة: د.سمير عبدالحميد إبراهيم.

٣٤- مخيم يا وطن - رواية - دعد رشراش الناصر.

٣٥- ديوان: «شدو الغرباء»، أسامة كامل الخريبي.

٣٦- ديوان: «إسراء.. لوادٍ غير ذي زرع»، محمود محمد كلزي.

٣٧- نحو منهج إسلامي للرواية.

٣٨- الشاعر والمفكر الإسلامي: محمد إقبال.

٣٩- مسرحيات إسلامية قصيرة.

٤٠- الكُنتي - مجموعة قصصية - د.عبدالرزاق حسين.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن الغشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلف في سطور

● عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين.

- مكان وتاريخ الميلاد: القدس، ١٩٤٩/٨/٤م.
- الجنسية: أردني.
- العمل الحالي: أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وعمل في جامعات: تيارت بالجزائر، وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وبالأحساء، في السعودية.
- نال جائزة في القصة القصيرة من نادي القصيم الأدبي، ومن نادي أبها الأدبي، وجائزة أبها الثقافية لأدب الأطفال عن كتابه (رؤية في أدب الأطفال).
- له أكثر من ٧٢ كتابًا في الدراسات والتحقيقات الأدبية والنقدية، منها:

الأطفال في التراث العربي، وفي النص العباسي والأندلسي: دراسة تحليلية، والأندلس في الشعر العربي المعاصر، ومكة المكرمة في عيون الشعراء.

- وله في الإبداع الروائي والقصصي: الرجل الظل (رواية)، وعصفور البحري (رواية)، وبسام يعود، وعندما يكتمل القمر (مجموعة قصصية)، والصراع (مجموعة قصصية).
- قصص للناشئة: أسد الإسلام، وأبو محجن خلف القضبان، وجرعة إيمان، والبصير، وأصحاب البستان، والساقية، ومهاجرات إلى الله، والخادم الصغير.
- سلسلة قصص للأطفال بعنوان: الحيوانات تتكلم وتتألم تضم ٦ قصص.

- له سبعة دواوين شعرية: دوائر القمر، أغنية للزيتون، ردّوا الخيول، من يوميات قاتل محترف.
- ومن شعره للأطفال: أعطر السيِّر (في سيرة الرسول ﷺ)، ومعًا إلى القدس، وأغاني الحروف.
- شارك في حضور كثير من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، منها مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي العالمية في استانبول عام ١٩٩٠م، وفي القاهرة عام ٢٠٠٢م، وفي فاس عام ٢٠٠٤م. وندوة عن الأدب الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء، ومؤتمر دولي حول قضايا الطفل من منظور إسلامي بالرباط، أقامته منظمة (الإيسيسكو) ٢٠٠٢م. وندوة اللغة العربية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن ٢٠٠٣م، وغيرها.

- العنوان الحالي: جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، ص.ب ١٧٦٩
الظهران ٣١٢٦١، المملكة العربية السعودية
جوال ٥٠٧٩٧٣٤٦٩ (٩٦٦+)
بريد إلكتروني: ahussein@kfupm.edu.sa